

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السادس والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السادس والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩١

سـورة الجمعـة
مدنيـة وآياتها إحـدى عشرة

الجمهور على أن هذه السورة مدنية ، فى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : « كنا جلوسًا عند النبى ﷺ حين نزلت سورة الجمعة .. » الحديث.

وإسلام أبى هريرة بعد الهجرة بالاتفاق ، ولأن أمر الانفضاض عند مجىء تجارة أو لهو الذى جاء فى آخر السورة ، وكذا أمر اليهود المشار إليه بقوله تعالى : (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوٓا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ ...) لم يكن إلا بالمدينة .

صلتها بما قبلها :

ووجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى : لَمَّا ذكر حال موسى – عليه السلام – مع قومه ، ونعى عليهم إيذاءهم له ، ذكر فى هذه السورة حال الرسول ﷺ وفضل أمته تشريفًا لهم ؛ لينظر الفرق بين الأُمتين ، ولذا تعرض فيها لذكر اليهود ، ولأنه تعالى لَمَّا ذكر فى السورة السابقة قول عيسى – عليه السلام – : « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ... » قال هنا : (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ..) إشارة إلى أنه هو الذى بشر به عيسى ، ولأنه تعالى لَمَّا ختم السورة السابقة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ، ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة ، وأخبر أنها خير التجارة الدنيوية ، إلى غير ذلك من المناسبات .

بعض مقاصد السـورة :

حكت سورة الجمعة أنه تعالى يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، ووصفته بأنه الملك القدوس العزيز الحكيم ، وأنه هو الذى بعث فى الأُمِّيِّين رسولًا منهم يُعَلِّمهم الكتاب والحكمة بعد أن كانوا فى جاهليتهم فى ضلال مُبين ، وضربت مثلًا للذين حملوا التوراة ولم يعملوا بها ، أنهم كمثل الحِمَار يَحمل أسْفارًا وكتبًا وهو لا يعلم ولا يعمل بها ، وكذبت اليهود فى زعمهم أنهم أولياءُ لله من دون الناس ، وتحدتهم بأن يطلبوا من الله الموت إن كانوا صادقين ؛ ليكونوا فى رِحاب من أَحبُّوه ، وذكرت أنهم لا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم من السيئات ، وأنهم يَفِرُّونَ منه وسيلاقُونه ثم يعودون إلى الله – تعالى – فيحاسبهم ويجازيهم.

وحثت السورة المؤمنين على أن يستجيبوا لنداء صلاة الجمعة ويتركوا التجارة مدة الصلاة وما يتصل بها ؛ ليعودوا إليها بعد الصلاة إن شاءوا ، وحذَّرهم من إيثارها على الصلاة ، ولامهم على الخروج من المسجد أثناء خطبة الجمعة من أجل اللَّهو والتِّجارة التى وصلت إلى المدينة أثناء الخطبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾)

المفـــردات :

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ) التسبيح : التنزيه .

(الْقُدُّوسِ) : البالغ غاية الطهر ، وهو على وزن فُعُّول من القدس وهو الطهر والقدوس من أسماء الله الحسنى .

(الْأُمِّيِّينَ) : الذين لا يقرءون ولا يكتبون .

(رَسُولًا مِّنْهُمْ) : رسولًا أُمِّيًّا مثلهم .

(وَيُزَكِّيهِمْ) : ويطهرهم من أقذار العقائد والأخلاق والعادات التى كانت لهم فى الجاهلية .

(الْكِتَابَ) : القرآن .

(وَالْحِكْمَةَ[1]) : السنة .

(لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : لفى بُعْد واضح عن الحق والحكمة ، لجاهليتهم التى كانوا فيها.

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ) : وبعثه فى آخرين من الأميين لم يؤمنوا بعد وسيؤمنون مثلهم .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : الغالب .

(الْحَكِيمُ) : المتقن للأمور .

(فَضْلُ اللَّهِ) : إحسانه وعطاؤه .

التفسير

١ - (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

جاء التعبير بلفظ المضارع (يُسَبِّحُ) ليفيد أن تسبيح ما فى السموات وما فى الأرض ، تعالى متجدد فى كل وقت ، والمراد من (مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) جميع أجزائهما ما استقر فيهما ، وتسبيح ذلك إما تسبيح دلالة كما فى قول الشاعر :

وفى كُلِّ شَىءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِد

وإما تسبيح مقال ، وهو فى كل شىء بحسبه ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النور : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ »[2] ، وكقوله فى سورة سبأ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا

(١) وتطلق الحكمة أيضا على حسن التصرف فى الأمور .
(٢) الآية ٤١ .

يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ »[(١)] ، وكقوله فى سورة ص : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ »[(٢)] ، وكقوله فى سورة الإسراء : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »[(٣)] .

والمعنى الإجمالى للآية : يسبح لله وينزهه عن الشريك وجميع صفات النقص - يسبح له - ما فى السموات وما فى الأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، المالك لهما الغالب لكل ما سواه الحكيم المتقن لكل الأمور ، ومن كان شأنه ذلك فلا يصح أن يعبد سواه .

٢ - (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

الأميون هم الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، نسبوا إلى الأم للإيذان بأنهم على فطرتهم التى ولدوا عليها ، فقد ولدوا لا يقرءون ولا يكتبون ، ولم يطرأ على تلك الفطرة ما يغيرها ، وقد كانت هذه سمتهم التى عرفوا بها بين الأمم ، وإن كنت ترى فيهم الخطباء والبلغاء والفصحاء بفطرتهم ، وهذا المعنى أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما بأسانيدهم عن النبى ﷺ قال : « إنا أمة أمية لا نقرأ ولا نحسب » ، وكان النبى ﷺ أميًا مثلهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ »[(٤)] .

قال الماوردى : فإن قيل : ما وجه الامتنان بأن بعث فى الأميين نبيًا أميًا ، فالجواب عنه من ثلاثة أوجه :

(أحدها) لموافقة ما تقدمت به بشارة الأنبياء .

---

(١) من الآية ١٠ .

(٢) الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٣) الآية ٤٤ .

(٤) العنكبوت ٤٨ ، ٤٩ .

(ثانيها) لمشاكلة حاله لأحوالهم فيكون أقرب إلى موافقتهم له .

(ثالثها) لينتفى عنه سوء الظن فى تعليمه ما دعا إليه من الكتب التى قرأها والحكم التى تلاها .

ونزيد على ذلك أن الله اختاره أُمِّيًّا ، لتكون أُميته مؤكدة لإعجاز القرآن ، وكونه آية على صدقه ، وكان النبى ﷺ لأُميته يحرك لسانه وينطق بالقرآن عقب سماعه من جبريل ليحفظه فلا يغيب عنه شىء منه فطمأنه الله – تعالى – إذ تعهد أن يجمعه فى صدره ، بعد فراغ جبريل – عليه السلام – من تبليغه ، وفى ذلك يقول سبحانه : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ »(١) . وقد تضمن القرآن علوم الأولين والآخرين ، وتحدث عن الماضى والحال والاستقبال ، وعن الآيات التى يستدل بها على الله ، وعن أدلة التوحيد والبعث ، وأسرار العلوم والفنون ، وعن التمكين لأُمته فى المشارق والمغارب ، ويرحم الله البوصيرى إذ يقول :

كَفَاكَ بِالعِلْمِ فى الأُمِّىِّ مُعْجِزة فى الْجَاهِلِيَّةِ والتَّأْدِيب فى اليُتْم

وقد اختار الله هذه الأُمة الأُمية ؛ ليكون الرسول منهم ؛ لأنهم أهل شجاعة وهمة ، قادرون على الثبات أمام الأهوال ، ولتظهر بهم قدرة الله ، حيث حوَّل جاهليتهم إلى علم وعرفان ، يفوق ما عرفه البشر من العلوم والفنون .

وكان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة ، ولكن محمدًا الرسول الأُمىّ بُعث إلى الناس كافة ، فدان لرسالته العرب والفُرس والرُّومان وغيرهم من أهل المشارق والمغارب ، فسبحان الله القادر على ما يشاء .

وقد عينت الآية الأُمة التى بعث منها ، ولم تعين الأُمم الذين أُرسل إليهم ؛ ليفهم من ذلك أن رسالته مفتوحة لامحدودة ، وقد علم عموم بعثته للعالم من قوله : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »(٢) ، وقوله : « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... »(٣) .

---

(١) سورة القيامة ١٦ – ١٩ . (٢) سورة التوبة من الآية : ٣٣ .
(٣) سورة سبأ من الآية : ٢٨ .

والمعنى الإجمالى للآية : هو الله الذى بعث فى الأُمِّيِّين رسولًا منهم أُمِّيًّا مثلهم ، يتلو عليهم آياته التى سمعها ووعاها من جبريل أمين الوحى الإلٰهى ، ويُعَلِّم هؤلاء الأُمِّيِّين هذا الكتاب فيقرؤه عليهم فيحفظونه لصفاء فطرتهم وقوة حفظهم ، ويكتبه الكتّاب منهم ويعلمهم السنة التىتشتمل على مختلف أنواع الحكم الشرعية والنقلية والعقلية كأسرار الكون ودلالتها على المكوِّن – سبحانه وتعالى – ويطهرهم من عقائد الجاهلية وأخلاقها ، وعاداتها ، وإنهم كانوا من قبل بعثه فيهم لفى ضلال عن الحق بيِّن واضح .

٣ – (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

لفظ (وَآخَرِينَ) معطوف على لفظ الأُمِّيِّين أو على الضمير فى (يُعَلِّمُهُمْ ، وَيُزَكِّيهِم) .

والآية صريحة فى أن هؤلاء الآخرين من الأُميين ، وأنهم لم يلحقوا بعد بمن قبلهم فى الالتقاء بالرسول وأخذ العلم عنه ، وسيلحقون بهم بعد نزول هذه الآية كما يفيده لفظ (لَمَّا) فإنها تفيد نفى ما دخلت عليه حالا ، وتوقع حصوله مستقبلًا ، فهى تخالف (لَمْ) فى ذلك ، إذ هى تفيد النفى دون توقع حصول المنفى بعدها .

وعملًا بظاهر الآية نقول : إنها نزلت قبل أن يسلم جميع الأُميين العرب ، فلا تزال حينئذ – بقية منهم فى جاهليتهم ، ولكنهم سيلحقون بمن قبلهم فى الإيمان بالرسول ﷺ فى حياته ، هذا ما عنَّ لنا فى فهم الآية الكريمة ، وهذا لا يمنع عموم رسالته المدلول عليه بما تقدم .

وقد اختلف المفسرون فى بيان المراد من هؤلاء الآخرين من الأُميين ، فقال ابن عمر وسعيد بن جبير : هم العجم ، واستشهدوا بما جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : (كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذ نزلت سورة الجمعة ، فلما قرأ « وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ » قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله ؟ فلم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا . قال : وفينا سلمان الفارسى . قال : فوضع النبى ﷺ يده على سلمان ، ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء) .

وقال عكرمة : هم التابعون ، وقال مجاهد : هم الناس كلهم - يعنى من بعد العرب الذين بُعِث فيهم محمد ﷺ . وقال ابن زيد ومقاتل بن حيان : هم مَن دخل فى الإسلام بعد النبى ﷺ إلى يوم القيامة .

ويرد على هذه التأويلات أمران :

(أحدهما) أن الضمير فى (آخَرِينَ مِنْهُمْ) يعود على الأُميين فى الآية التى قبلها وهؤلاء الذين ذكروا فى التأويلات السابقة ليسوا أُميين ، والأُميون هم العرب كما تقدم .

(وثانيهما) أنه ﷺ لا يُعلِّم هؤلاء الآخرين ولا يزكيهم ، وإنما يعلمهم ويزكيهم المسلمون الذين ورثوا الكتاب والحكمة بعد رسول الله ﷺ .

ويجاب عن الأول : بأن الذين يتوقع منهم الإسلام بعده ﷺ أُميُّون من جهة العلم النافع ، فهم ما بين وثنيين وأهل كتاب غيروه وبدلوه ، فهم فى حكم الأُميين ، فلما أسلموا تعلموا الكتاب والحكمة وطهرت نفوسهم ، وبذلك زالت أُميتهم العلمية ، على أن غالبية الشعوب التى دخلها الإسلام كانوا لا يقرءون ولا يكتبون فهم أُميون باعتبار أغلبيتهم .

ويجاب عن الثانى : بأن إسلام مَنْ بعده ﷺ ناشئ عما تركه فيهم من آثار رسالته من الكتاب والحكمة ، فكأنه بُعِث فيهم ، ولا تغفل عما فهمناه أولًا من نص الآية ، فهو أظهر من تلك الآراء التى أجبنا على ما وجه إليها من الاعتراضات ، والله ولى التوفيق .

وفى عموم رسالته ﷺ لمن عاصروه ولمن بعدهم إلى يوم القيامة يقول - سبحانه - : « هُوَ الَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ »[1] .

٤ - (ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) :

أى : ذلك الذى تقدم من بعث محمد ﷺ فى الأُميين وسواهم ؛ ليهتدوا - ذلك - فضل الله وعطاؤه العظيم ، يعطيه من يشاء وهو محمد ﷺ ولا يشاء - سبحانه - لأحد بعده ،

---

(١) سورة الصف : ٩ .

فهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، والله صاحب الإحسان والعطاء الجزيل الذى تُحتقر نعم الدنيا بالقياس عليه .

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ) : صفة اليهود الذين كلفوا العمل بالتوراة .

(ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا) : ثم لم يعملوا بها .

(أَسْفَارًا) : جمع سِفر وهو الكتاب الكبير ، وسمى بذلك ؛ لأنه إذا قرئ يسفر عن معناه .

(الَّذِينَ هَادُوا) : الذين دانوا باليهودية .

(مُلَاقِيكُمْ) : موافيكم ومقابل لكم حيثما كنتم .

التفسير

٥ - (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، فهى تشير إلى أن ذلك الرسول المبعوث فى الأميين ، قد نَعَتَهُ الله هنا بما نعته به فى التوراة ، فقد نُعِتَ فيها بأنه النبى الأمى المبعوث إلى أمة أميين .

والمعنى : مثل من جاءهم نعت الرسول فى التوراة وهم اليهود وقد علموه ولم يؤمنوا به كمثل الحمار يحمل أسفارًا لا ينتفع بها ، فليس له منها إلا الحمل ، (بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ) أى ، بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا بآيات الله ولم ينتفعوا بها ، فالمثل المقدر هو المخصوص بالذم[1] .

وقد ختم الله الآية بقوله :(وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى :لا يهدى اليهود الظالمين الذين وضعوا التكذيب فى موضع التصديق وأصروا على ذلك .

٦ - (قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

قل أيها الرسول : يأيها الذين دانوا باليهودية إن زعمتم أنكم أحباء لله دون غيركم من الناس ، فاطلبوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى دار الكرامة إن كنتم صادقين فيما زعمتموه من أنكم مختصون بحب الله ، فإن من أيقن أنه من أهل الجنة ، أحب أن يتخلص إليها من دار المحن والأكدار .

وقد أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم ذلك إظهارًا لكذبهم ، وإنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ،ويزعمون أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودًا ، إلى غير ذلك من سائر دعاواهم الكاذبة .

---

(١) راجع الآلوسى .

٧ - ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ :

ولا يتمنى الموت هؤلاء اليهود - لايتمنونه - أبدًا ، إيثارًا للحياة الدنيا على الآخرة وخوفاً من عقابهم على ماقالوه فى النبى ﷺ .

وجاء فى حديث عن النبى ﷺ قال لمَّا نزلت هذه الآية : « والذى نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقى على ظهرها يهودى إلا مات » .

٨ - ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ[1] ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ :

قل لهم أيها الرسول : إن الموت الذى تفرون من طلبه إياكم فإنه ملاقيكم عند مجىء آجالكم ، ثم تردون يوم البعث إلى الله عالم ماغاب وما حضر ، فينبئكم بما كنتم تعملون فى دنياكم من المساوىء ، ويجزيكم عليها أسوأ الجزاء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المفـــردات :

(نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ) : دُعِىَ بالأذان لصلاة الجمعة فى يومها .

(فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) : فامضوا إلى صلاتها التى يذكر فيها اسم الله ولا تتخلفوا عنها ، وأطلق لفظ (ذِكْرِ اللَّهِ) على الصلاة مجازًا ؛ لأنه أهم مقاصدها .

---

(١) جملة « فإنه ملاقيكم » خبر إن السابقة فى محل رفع ، واقترنت بالفاء ؛ لأن اسم إن وهو الموت لما وصف بالموصول وصلته (الذى تفرون منه) وهو فى معنى الشرط ، وما بعده فى معنى الجزاء ، فكأنه قيل : إن فررتم من الموت فإنه ملاقيكم .

(وَذَرُوا الْبَيْعَ) : واتركوا البيع والشراء حتى تُصَلُّوها .

(قُضِيَتِ الصَّلَاةُ) : أُدِّيت .

(وَابْتَغُوا) : واطلبوا.

التفسير

٩ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

المقصود من النداء لصلاة الجمعة الأذان الشرعى المعهود لما فيه من قول المؤذن:« حَيَّ عَلَى الصَّلَاة » أى :أقبلوا عليها وتعالوا لأدائها ، ولفظ الجمعة بضم الميم وتسكينها ، قال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل - أى : بالضم - والتخفيف أى : تسكينها ، فاقرءُوا جُمُعة - بضم الميم - وفتح ميمها جائز لغة ولكنه لم يرد قراءة .

وكان يقال ليوم الجمعة يوم العَرُوبة - بفتح العين - واختلف فى أول من سماه يوم الجمعة ، فقيل : هو كعب بن لؤى ، وهو أول من قال : أمّا بعد - قاله أبو سلمة .

وقيل : أول من سماه جمعة الأنصار ، قال ابن سيرين : جَمّع أهل المدينة من قبل أن يقـدم النبى ﷺ المدينة وقبل أن تنزل (الجمعة) وهم الذين سموه يوم الجمعة ، وذلك أنهم قالوا : إن لليهود يوماً يجتمعون فيه فى كل سبعة أيام وهو السبت ، وللنصارى يوم مثل ذلك وهو الأحد ، فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل لنا يوماً نذكر الله ونصلى فيه ونستذكر - أو كما قالوا - فقالوا : يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم العَروبة ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة (أبو أمامة)- رضى الله عنه- فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم ، فسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا ، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها لقلتهم ، فهذه أول جمعة فى الإسلام - ارجع إلى الآلوسى وغيره . وروى أنهم كانوا اثنى عشر رجلا ، وعلى أى حال فإنه سمى يوم الجمعة لاجتماع الناس فيه .

وأما أول جمعة جمّعها النبى ﷺ بأصحابه فكانت فى قباء ، فقد قدم النبى ﷺ مهاجرًا حتى نزل بها ، على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة

خلت من شهر ربيع الأول فأقام بها إلى يوم الخميس وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف، وكان المسلمون قد بنوا مسجدا، فجمَّع النبى ﷺ بهم فيه، وخطب، وهى أول خطبة خطبها بالمدينة، وقال فيها: «الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره، وأعادى من يكفر به، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة على فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد شكر، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيدًا، أوصيكم بتقوى الله فإنه خيرما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة...» إلى آخر الخطبة، وهى خطبة عظيمة ومنهاج رشيد، فارجع إليها فى القرطبى فى المسألة الثانية.

اذان الجمعة فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد عثمان – رضى الله عنه –

كان للرسول ﷺ أذان واحد للجمعة، فكان إذا جلس على المنبر أذَّن المؤذن على باب المسجد فإذا نزل ﷺ أقام المؤذن الصَّلَاة، وكان أبو بكر وعمر على ذلك، حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل، زاد مؤذنا آخر، فأمر بالتأذين الأول على داره التى تسمى زوراء، تسمية لها باسم موضع مرتفع بسوق المدينة، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثانى، فإذا نزل أقام الصلاة، فلم يُعبْ ذلك.

ومن محاسن الأذان الأول بالزوراء، أنه كان ينبه الناس إلى ترك البيع والسعى لأداء صلاة الجمعة وهو الآن كذلك.

المراد من السعى وذكر الله:

المراد من السعى المشى بدون إفراط فى السرعة، وقال قتادة: أن تسعى بقلبك وعملك.

وقد اتسع العمران فى هذا الزمان، فينبغى عدم انتظار الأذان للسعى إلى المسجد، وأن يبكر المصلى ليأخذ له مكاناً فيه قبل امتلائه بالمصلين بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب وتزين امتثالا لقوله تعالى: «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ».

وذكر الله هو الصّلاة والخطبة قبلها ، والسعى إليها عند الأذان الأول واجب ، وقد أوجب الله فى الآية السعى إلى الجمعة من غير شرط ، وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة فى جميع الصلوات ، لقوله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ... »[1] وقال ﷺ : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » أما الغسل للجمعة فهو سنة وليس فرضاً لها ، قال ﷺ : « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغسل أفضل » أخرجه النسائى وأبو داود فى سننهما .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من توضّأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء، ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت غفر الله ما بين الجمعة إلى إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، ومنْ مسّ الحصا فقد لَغَا » والمقصود بمسّ الحصا الاشتغال عن سماع الخطبة بأى شاغل وإن صَغُر ، والمراد بكلمة (لغا) أتى بما لا يليق بالاستماع للخطبة وأضاع ثوابه ، وقال صاحب المختار : (لغا) أى :قال باطلا ، والمراد منه فى الحديث ما يشمل الكلام وغيره .

وقوله تعالى : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) أمر بتركه قُبَيْلَ خطبة وصلاة الجمعة ، وتحريم له فى وقتهما ، وكذلك الشراء ، ولم يصرح به ؛ لأنه لا يخلو بيع من شراء ، فالنهى عن أحدهما شامل لهما جميعاً ، ومع كونهما محرمين عند الأذان إلى تمام الصلاة فإنهما لا ينعقدان ويفسخ كلاهما ، وأجاز بعض العلماء البيع فى الوقت المذكور ، وحمل النهى على الندب ، واستدل بقوله تعالى : « ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى :أفضل لكم من البيع ، وهذا هو مذهب الشافعى ، وقال الزمخشرى فى تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لايؤدى إلى فسخ البيع ؛ لأن البيع لم يحرم لعينه ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة فى الأرض المغصوبة : يعنى أنها تصح مع حرمتها ولا تسقط الجمعة لكونها يوم عيد ، خلافاً للإمام أحمد فإنه قال : إذا اجتمع عيد وجمعة سقط فرض الجمعة لتقدم العيد عليها واشتغال الناس به عنها ، واستدل على ذلك بما روى أن عثمان - رضى الله عنه - أذن فى يوم عيد لأهل العوالى أن يتخلفوا

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٦ .

عن الجمعة ، وقول الصحابي الواحد إذا خولف فيه لا يعتبر حجة ، والأمر بالسعى إلى صلاة الجمعة متوجه يوم العيد كتوجهه فى سائر الأيام ، وفى صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال : « كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » و « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد يقرأ بهما أيضاً فى الصلاتين . أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة[1] .

المعنى الإجمالى للآية : ياأيها الذين آمنوا وكنتم من المقيمين فى بلد الجمعة المكلفين بالصلاة : إذا سمعتم أذان الجمعة فعليكم أن تمضوا إلى مكان أدائها وعليكم السكينة والوقار ، وأن تستمعوا إلى خطبة الجمعة ، وتصلوا صلاتها فى جماعة وأنتم متوضئون ، فإنه لاصلاة من غير وضوء ، وعليكم أن تمتنعوا عن البيع والشراء ابتداءً من الأذان الأول على الأقل ؛ لتتفرغوا لسماع خطبتها وأدائها مع الجماعة ، فإن البيع والشراء حينئذ حرام ، ويقول بعض العلماء : إنهما باطلان ، ذلكم خير لكم فى دينكم ، ففى ذلك غفران لذنوبكم ومثوبة من الله لكم ، إن كنتم تميزون بين الخير والشر والنفع والضر .

١٠ - (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

فإذا فرغتم من صلاة الجمعة فمباح لكم أن تنتشروا فى الأرض للتجارة والتصرف فى حوائجكم ونحو ذلك واطلبوا من رزق الله بسعيكم ، واذكروا الله ذكرًا كثيرًا فى جميع الأحوال ، واشكروه على توفيقكم لأداء الفرائض ؛ لكى تفلحوا وتفوزوا فى دنياكم وأخراكم .

ويقول القرطبى : كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إنى قد أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » .

---

(١) انظر القرطبى فى شرح هذه الآية فى المسألة الحادية عشرة .

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَٰرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ (١١)

سبب نزول هـذه الآية

أخرج الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ـ فى رواية : أنا فيهم ـ فأنزلت هذه الآية التى فى الجمعة (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) وفى رواية : فيهم أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ .

وقد ذكر الكلبى وغيره، أن الذى قدم بالعير دحية بن خليفة الكلبى من الشام عند مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما يحتاج الناس إليه من بُرٍّ ودقيق وغيرهما ، فنزل عند أحجار الزيت[1] وضرب بالطبل ؛ ليؤذن الناس بقدومه ، فخرج الناس إلا اثنى عشر رجلا ، وقيل : ثمانية رجال ، وقيل :أربعون رجلا ، وقيل : غير ذلك ، وكانت هذه التجارة لعبد الرحمن ابن عوف ، وذكر الزمخشرى أنه ﷺ قال : « والَّذِى نفسى بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادى نارًا » كما جاء فى القرطبى .

والمراد من اللهو نفس التجارة ، فاعتبر خروجهم لتلقيها لهوًا تهجيناً له ، لما فيه من الإعراض عنه ﷺ ولهذا رجع الضمير مؤنثاً فى قوله : (إِلَيْهَا) ـ رجع ـ إلى التجارة ، ولم يذكر ليرجع إلى اللهو ؛ لأنه لم يقصد لذاته بل لتقبيح خروجهم للتجارة أثناء الخطبة لمشاهدة ما جاء فيها أو للشراء منها لهوا ، فإن رزقهم منها مكتوب عند الله تعالى ، فلا وجه لتركهم سماع الخطبة والانصراف إليها .

---

(١) اسم مكان فى سوق المدينة .

وقيل : إن المعنى : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوا انفضوا إليه ، فحذف لدلالة ماقبله عليه ، كما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

أى : نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض .

وقال جابر بن عبد الله : كانت الجوارى إذا نُكِحْن - أى : تزوجن - يمرون بالمزامير والطبل فانفضوا إليها فنزلت ، وإنما ردَّ الكناية[1] إلى التجارة ؛ لأنها أهم ، أو لأن الخروج إليها حينئذ إذا كان مذموماً فهو للَّهو أكثر ذما .

العدد الذى به تصح الجمعة

قال الحسن : تنعقد الجمعة باثنين ، وقال الليث وأبو يوسف : تنعقد بثلاثة ، وقال أبو حنيفة : تنعقد بأربعة ، وقال ربيعة : باثنى عشر رجلا ، وقال الشافعى : بأربعين رجلا ، ولعل هؤلاء استند كل منهم إلى إحدى الروايات فيمن بقى مع الرسول بعد خروج من خرج لمشاهدة التجارة التى جاء بها دحية من الشام .

وفى حاضرى الصلاة بعد خروج من خرج منهم ، وفى البلد الذى تقام فيه الجمعة وغير ذلك بحث واسع النطاق ، فمن أراده فليرجع إليه فى القرطبى والآلوسى وغيرها من الموسوعات .

هل حضور الحاكم شرط فى صحة الجمعة ؟

فى ذلك خلاف بين الأئمة ، ففريق يقول بصحتها بغير إذن الحاكم أو حضوره ، وقال أبو حنيفة : منْ شرطها الإمام أو خليفته ، ودليل الرأى الأول أن الوليد بن عقبة والى الكوفة أبطأ يوماً ، فصلى ابن مسعود بالناس من غير إذنه ، وأن عليًّا صلى الجمعة يوم حُوصِر عثمان ولم ينقل أنه استأذنه ، إلى غير ذلك من الأدلة ، وفى ذلك يقول الإمام مالك : إن لله فرائض فى أرضه لا يُضَيِّعُهَا - ولِيهَا والٍ أو لم يَلِها .

---

(١) المقصود من الكناية الضمير فى (إليها) .

القيـام شرط فى الخطبـة

دلَّ قوله تعالى : (وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا) على أن القيام شرط فى أداء خطبة الجمعة ، وجاء فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائماً ثم يجلس ، ثم يقوم فيخطب ، فمن نَبَّأَك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب إلخ وعلى هذا الرأى جمهور الفقهاء .

وقال أبو حنيفة : ليس القيام بشرط فيها ، وهذا مخالف لظاهر النص(وَتَرَكُوكَ قَآئِماً) أو للحديث الصحيح الذى مرَّ ذكره .

احكام مختلفـة

لا تصح الجمعة من غير خطبة ، وهو قول الجمهور ، وقال الحسن : هى مستحبة ، وبه قال ابن الماجشون وسعيد بن جبير ، ويرد هذا الرأى ظاهر قوله تعالى : (وَتَرَكُوكَ قَآئِماً) .

ومن السنة أن يتكىء الخطيب على قوس أو عصا ، ففى سنن ابن ماجة بسنده(أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس ، وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا) .

ويسلم الخطيب على الناس إذا صعد على المنبر عند الشافعى وغيره ، روى ابن ماجة بسنده (أن النبى ﷺ كان إذا صعد المنبر سلَّم) .

ويجب فى الخطبة أن تكون على طهارة عند الجمهور ، وللشافعى قولان (أحدهما) الوجوب فى المذهب الجديد ، ولم يشترط فى المذهب القديم ، وهو رأى أبى حنيفة .

أركان الخطبة :

الحنفية قالوا : للخطبة ركن واحد وهو مطلق الذكر الشامل للقليل والكثير ، فتكفى تسبيحة أو تحميدة أو تهليلة ، وإن كره الاقتصار على ذلك .

والشافعية قالوا : أركانها خمسة : الحمد لله ، والصلاة على النبي ﷺ ، والوصية بالتقوى ، وقراءة آية فى إحدى الخطبتين والأولى أولى ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات فى الثانية .

والمالكية قالوا : لها ركن واحد وهو أن تكون مشتملة على تحذير أو تبشير .

والحنابلة قالوا : كقول الشافعية فيما عدا الدعاء للمؤمنين والمؤمنات .

والسكوت للخطبة واجب على من سمعها ومن لم يسمعها ؛ ليتمكن المصلى من الانتفاع بما جاء فيها ، ومن تكلم حينئذ فقد لغا وأتى بالباطل ، ولا تفسد صلاته .

وفى الصحيح عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة فقد لَغوْتَ » يعنى أن الصمت مطلوب من جميع المصلين أثناء الخطبة ، من غير حاجة إلى من ينبههم ، ومن دخل المسجد يوم الجمعة والإمام يخطب فلا يصلى ، وهذا مذهب مالك ، وبه قال ابن شهاب ، وجاء فى الموطأ أن خروج الإمام من حجرته للخطبة يقطع صلاة المصلى ، وكلامه يقطع الكلام ، وقال الشافعى وغيره : لمن دخل المسجد والإمام يخطب أن يصلى ركعتين خفيفتين تحية المسجد قبل أن يجلس ، وحجتهم فى ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر عن النبي ﷺ : « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما » أى : يخفف فى أدائهما .

سورة المنافقون

مدنية وآياتها احدى عشرة آية

صلتها بما قبلها :

جاءت هذه السورة بعد سورة الجمعة التى ذكر فيها المؤمنون ، لأنها تحكى أحوال المنافقين الذين هم أعداء المؤمنين ، أخرج سعيد بن منصور والطبرانى فى الأوسط بسند حسن عن أبى هريرة قال : (كان رسول الله ﷺ يقرأ فى صلاة الجمعة سورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين ، وفى الثانية سورة المنافقون فيقرع بها المنافقين) .

وقال أبو حيان فى مجيئها بعدها : لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلاً من المنافقين ، واتبعهم ناس كثير من المؤمنين فى ذلك لسرورهم بالعير التى قدمت بالمِيرَة ، إذ كان الوقت وقت مجاعة ، جاء ذكر المنافقين وماهم عليه من كراهة أهل الإيمان ، وأتبع قبائح أفعالهم بقبائح أقوالهم .

مقاصد السورة :

اشتملت سورة (المُنَافِقُونَ) على تكذيبهم فى دعوى الإيمان ، وفى أَيْمَانِهِم التى أيدوا بها زعم إيمَانهم ، وما هم إلا كافرون فى الحقيقة صادون عن سبيل الله ، وبينت أنهم آمنوا ثم كفروا مُصِرِّين على كفرهم فطبع الله على قلوبهم وأغلقها عن قبول الحق .

وبينت أن مظهرهم يخالف مخبرهم ، فإن رأيتهم أعجبتك أجسامهم وحسبت أنهم أهل نجدة وهمة وصدق ، ولكنهم فى الحقيقة جبناء يحسبون كل صيحة عليهم ، فيجزعون لها ، وبينت أنهم هم العدو وحذرت الرسول ﷺ منهم ، وبينت أنهم لا يهمهم ما يثار ضدهم من ربهم من النفاق ، فهم إذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﷺ لووا رءوسهم واستكبروا ، وذكرت أن الله - تعالى - لن يغفر لهم نفاقهم ، سواء استغفر لهم الرسول أو لم يستغفر لهم ، وبينت أنهم الذين يقولون :(لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا) وأنهم هم الذين يقولون : (لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ

الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) وختمت السورة بنهى المؤمنين عن أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ، وتحريضهم على أن ينفقوا فى سبيل الخير مما رزقهم الله ، وأن يعجلوا بذلك قبل أن تأتيهم آجالهم فيندموا على عدم العمل لأنفسهم قبل أن يجىء أجلهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(الْمُنَافِقُونَ) : هم الذين كانوا يظهرون الإيمان ويخفون الكفر منذ عهد رسول الله ﷺ .

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) : اتخذوها سترة لنفاقهم .

(فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) : فختم عليها بالكفر .

التفسير

١ـ(إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) :

سبب نزولها كما رواه البخارى بسنده عن زيد بن أرقم قال : كنت مع عمى فسمعت عبد الله بن أبىّ بن سلول يقول : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » وقال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فذكرت ذلك لعمى ، فذكره عمى لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبى وأصحابه ، فحلفوا ماقالوا ، فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبنى ، فأصابنى همٌّ لم يصبنى مثله فجلست فى بيتى فأنزل الله – عز وجل – (إِذَا جَآءَكَ الْمُنَـٰفِقُونَ) إلى قوله (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ) إلى قوله : (لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) فأرسل إلىَّ رسول الله ﷺ ثم قال : « إن الله قد صدقك » أخرجه الترمذى وقال : هذا حديث صحيح .

وقد رواه الترمذى عن زيد بن أرقم برواية أخرى ، ومما جاء فيها أنهم كانوا فى إحدى الغزوات ، واختلف الأنصار مع المنافقين لمنعهم الماء عن الأنصار ، فقال ابن أبى ماقاله ، وهذه الرواية طويلة ومفصلة ، وقد ذكرها القرطبى ، فمن شاء قراءتها فليرجع إلى القرطبى وسواه ، وحسب القارىء ما رواه البخارى ووافقه فيه الترمذى ، وهو ما تقدم ذكره .

ويؤخذ من ذلك أن النفاق فى الدين أو فى غيره مذموم ، وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « آيةُ المنافق ثلاث : إذا حَدَّث كذَب ، وإذا وعَدَ أخلَف ، وإذا اؤتُمِن خَان » وعن عبد الله بن عَمْرو أن النبى ﷺ قال : « أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خَصلَةٌ منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَهَا ، إذا ائتمن خان ، وإذا حدثَ كذبَ ، وإذا عاهدَ غدرَ ، وإذا خاصَم فَجَر » .

قال الحسن : إنما هذا القول عن النبى ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين ، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال ، شفقا أن تفضى بهم إلى النفاق ، وليس المعنى أن مَنْ بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق .

ونحن نقول : إن المقصود مما جاء فى هذين الحديثين ، أن لايتصفوا بهذه الصفات أو بعضها ، فإنها شيمة المنافقين وسجاياهم ، وهى لا تليق بالمؤمنين ولا بأخلاقهم الرفيعة ، فمن اتصف بهذه الخصال أو ببعضها فهو منافق من جهة الخلق لا من جهة العقيدة ولهذا قال ﷺ : « المؤمنُ إذا حدَّث صَدَق ، وإذا وعَد أنْجَز ، وإذا اؤتُمِنَ وفَّى » .

ومعنى الآية :إذا جاءكَ المُنَافقون ـ أيها النبي ـ قالوا نعترف بأنك رسول الله **ونشهد** بذلك ، يريدون بشهادتهم هذه نفى النفاق عنهم ، ودفعاً للشبه التى تحوم حولهم ، والله يعلم إنك لرسول الله كما قالوا بألسنتهم ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى ادعاء إيمانهم ، وكاذبون فى أن شهادتهم بألسنة توافق ما انطوت عليه قلوبهم .

وقال الفراء : وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون بضمائرهم ، فالتكذيب راجع إلى الضمائر .

وهذا يدل على أن الإيمان تصديق بالقلب ، وعلى أن الكلام الحقيقى هو كلام القلب ، ومن قال شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب : اهـ .

وتلخيصاً لما قيل فيه نقول : إن قولهم نشهد إنك لرسول الله صادق من جهة الواقع وكاذب بالنسبة لما فى قلوبهم التى لاتشهد بذلك ، فهم بشهادتهم هذه يكذبون على قلوبهم التى لا تشهد بذلك لكفرهم .

٢ ـ (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

هذه الآية استئناف مبين لعادتهم فى نفى الشبه عن أنفسهم ، حتى لايؤاخذوا بقول أوعمل ضد المؤمنين ومن ذلك شهادتهم بأنهم لم يقولوا ما نسب إليهم ، فالشهادة منهم فى حكم اليمين ، وقد أفادت الآية أن المنافقين اتخذوا أيمانهم الكاذبة سترة ووقاية عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل أو السبى أو غير ذلك ، قال قتادة :كلما ظهر عليهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم ، وقال الآلوسى : ويجوز أن يراد بأيمانهم شهادتهم السابقة ، والشهادة وأفعال العلم واليقين أجرتها العرب مجرى القسم ، وتلقتها بما يتلقى به القسم ، ويؤكد بها الكلام كما يؤكد به ، فلهذا يطلق عليها اليمين ، ونحن نقول : إن الكلام السابق أعم وأشمل ، فتدخل فيه الشهادة كسائر الأيمان ، فإنهم لم يتخذوا الشهادة الكاذبة وحدها سترة لهم ، بل جميع أيمانهم .

والمعنى الإجمالى للآية : اتخذ المنافقون أيمانهم الكاذبة سترة ووقاية لهم من العقاب الذى يقتضيه ما نسب إليهم ، فصدوا من أراد الدخول فى الإسلام أو فعل الطاعة مطلقاً ، أو أعرضوا[1] عن الإيمان الذى هو السبيل إلى الله ، إنهم قبح ما كانوا يعملون من النفاق وآثاره .

٣ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) :

ذٰلك الذى حدث من المنافقين ضد الإسلام والمسلمين ، حاصل بسبب أنهم آمنوا باللِّسان ثم ظهر كفرهم بالقلب وتبين بما علم من قولهم : إن كان ما يقوله محمد حقًّا فنحن حمير ، وقولهم فى غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر . وغير ذلك ، وأصروا على النفاق ، فختم الله على قلوبهم وأغلقها على الكفر ، فهم لا يفقهون عظمة الإسلام وآثاره الجليلة فى الدنيا والآخرة ، فلذلك نافقوا وضلوا عن سواء السبيل ، والله أعلم .

* (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(تُعْجِبُكَ) : تروقك وتحسن فى عينك .

(قَاتَلَهُمُ اللهُ) : لعنهم وطردهم من رحمته .

(أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

---

(١) لفظ « صد » يستعمل متعديا للمفعول كالمثال الأول ، أو لازما بمعنى أعرض كالمثال الثانى .

التفسير

٤ ـ (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ...) الآية :

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة أن المنافقين لكاذبون ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم حيث يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام ، وأنهم اتخذوا الحلف والقسم وقاية من قتل وسبى المسلمين لهم جزاء ما يظهر منهم ، وهم مع ذلك قد منعوا غيرهم من الدخول فى الإسلام ونفروهم منه وأنهم قد بلغت أفعالهم درجةً كبيرة من الإساءة يتعجب منها ، وأنهم انقلبوا ونكسوا على رءوسهم فكفروا بعد إيمان ، بعد ذلك أبان الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعض صفاتهم الخلقية والخلقية فقال : (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ) أى : وإذا نظرت إلى هؤلاء المنافقين راقك منظرهم ، واستحسنت هيأتهم ، وأخذتك فصاحة ألسنتهم وبلاغة حديثهم ، وكان عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين فى المدينة رجلًا جسيما صبيحًا فصيحا ذلق اللسان وقوم من المنافقين فى مثل صفته ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ، ولهم جهارة المنظر وفصاحة الألسن فكان النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن حضر يعجبون بأجسامهم ويسمعون إلى كلامهم .

وفى قوله تعالى : (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ) ما يدل على أنهم فى حقيقة أمرهم لا ينتفع بهم ، والشأن فيهم أنهم ببسطة أجسامهم وذرابة ألسنتهم أهل لأن يذودوا عن الإسلام ، ويدافعوا عنه فى ساحة الوغى وميادين القتال مع قدرتهم على بيان ما أنزل الله على رسوله تبليغا لغيرهم ودعوة لسواهم إلى الإسلام ، ولكنهم لما نافقوا كانوا كالخشب المسندة التى لا تؤدى وظيفتها وما تصلح له من عمل فى سقف أو جدار أو باب أو نافذة إلى غير ذلك من مظان الانتفاع ثم هى فوق ذلك عبء على سواها ؛ لأنها تلقى بثقلها على ما تستند إليه ، وهم بذلك لا يسمعون ولا يعقلون ، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام . (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) أى : يظنون كل صوت عال واقع عليهم وضارٌ بهم لجبنهم وهلعهم وللرعب والخوف الذى تمكن من قلوبهم فإذا نادى مناد بصوت فى العسكر إبان الحرب أو انفلتت دابة أو أنشد وطلب شىء قد ضاع من صاحبه ظنوا ذلك إيقاعًا ، وإنزالًا للنكال بهم ، وقيل : كانوا على

وجل وخوف من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويكشف نفاقهم ويبيح دماءهم وأموالهم لكفرهم ونفاقهم .

(هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) أى :هم وحدهم الذين تناهوا فى العداوة وبلغوا فيها مبلغًا كبيرًا فخذ حذرك منهم ، ولا تغتر ولا تنخدع بإسلام ظاهرهم ؛لأن أعدى الأعداء العدو المداجى[1] الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداءُ الدوىّ . (قَاتَلَهُمُ اللهُ) هذا دعاءٌ عليهم بالطرد واللعن والإبعاد من رحمته- تعالى- وهو أيضًا تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بمثل ذلك شريطة ألّا يكون اللعن لكافر أو منافق بذاته خشية أن يكون ممن كتب الله لهم الإيمان وختم به حياتهم .

(أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) هذا تعجيب من جهلهم وسفاهتهم أى :كيف يُصرفون عن الحق مع معرفتهم له وتحققهم منه . وقال ابن عباس : (أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) أنى يكذبون .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾)

المفـــردات :

(يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ) : يطلب لكم من الله الصفح عما بدر منكم من العصيان وفحش القول .

(لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ) : أمالوها تكبرًا وإعراضًا أو حركوها استهزاءً .

---

(١) المداجى : هو الذى يدارى ويستر العداوة ، يكاشرك : يبتسم لك .

(يَصُدُّونَ) : يعرضون متكبرين ، أو يمنعون سواهم .

(الفَاسِقِينَ) : الخارجين عن طاعة الله البالغين فى الفسق غايته .

التفسير

٥ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ...) الآية :

لَمَّا أقسم رأس النفاق عبد الله بن أُبَىّ بن سلول أنه ما دعا قومه إلى منع الإنفاق على فقراء المسلمين حتى ينصرفوا عن رسول الله ﷺ ويرتدوا إلى الكفر ، وأنه ما قال عند رجوعه إلى المدينة :ليخرجنَّ الأعز منها الأذل ، وقصد بالأعز نفسه ومن على شاكلته من المنافقين ، وعنى بالأذل رسول الله - عليه الصلاة والسلام - والمسلمين ، وقال الحاضرون : يارسول الله شيخنا وكبيرنا لاتصدق عليه كلام غلام عسى أن يكون قَدْ وَهِمَ ، وأن رسول الله ﷺ قال لزيد بن أرقم استيثاقا من كلامه : (لَعلَّكَ غضبت عليه) ؟ قال : لا . قال : (فلعله أخطأ سمعك ؟) قال : لا . قال : (فلعله شبه عليك) ؟ قال : لا ، فلما نزلت (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) لحق رسول الله ﷺ زيدًا من خلفه فعرك أُذنه وقال : (وفت أُذنك يا غلام إن الله صدقك وكذب المنافقين) . قيل لعبد الله بن أُبى بن سلول : لقد نزلت فيك آى شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال : أمرتمونى أن أومن فآمنت وأمرتمونى أن أزكى مالى فزكيت فما بقى إلا أن أسجد لمحمد فنزلت : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا يَسْتَغفِرْ لَكُمْ رسُولُ اللهِ ...) الآية .

والمعنى : وإذا قيل لهذا المنافق وأضرابه كالجد بن قيس، ومعتب بن قشير تعالوا وأقبلوا تائبين معتذرين عما بدر منكم من سئ القول وسفيه الحديث - يطلب لكم رسول الله ﷺ من ربه - جلت قدرته - أن يصفح ويعفو عنكم أبوا وأمالوا رءوسهم إعراضًا واستكبارًا أو حركوها استهزاءً وسخرية . (وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ) أى :وأبصرت منهم أو علمت من أمرهم إعراضًا عن اتباعك ومنعًا وإبعادا لسواهم عن ذلك ، وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : (وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) للإشعار بأنهم لم يكرههم غيرهم ولم يجبرهم سواهم على ما هم فيه من كفر ونفاق وصدّ وإعراض وإنما كان حالهم وشأنهم أنهم فى أنفة وعناد واستكبار .

٦ - (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ...) الآية ...

أى : ما دام هذا شأنهم وحالهم فإن استغفارك لهم وعدمه يستويان ؛لأنهم لا يرغبون فيه ولا يلتفتون إليه ولا يعتدون به أو لأن الله لا يغفر لهم . (إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) أى لأنه -سبحانه- لا يمنح هدايته وتوفيقه للقوم المغالين فى الغش الخارجين عن دائرة الطاعة المنهمكين فى أنواع القبائح المتردين فى حمأة النفاق والشرك وهؤلاء قد بلغوا الغاية فى ذلك وتربعوا على ذروتها وركبوا سنامها . لذلك سبق فى علم الله أنهم يموتون فساقًا ؛ لأنهم اختاروا الفسق .

(هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(يَنفَضُّوا) : يتفرقوا ويتركوا الرسول .

(لَا يَفْقَهُونَ) : لا يفهمون ولا يفطنون .

التفسـير

٧- (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ...) الآية :

أى : هؤلاء الذين أخبرك الله عنهم - يا محمد - أنه لن يغفر لهم ، ولن يصفح عنهم هم أولئك الآثمون فى قولهم المدعون أن الأرزاق بأيديهم ، وأن المنة لهم على فقراء المسلمين بالإنفاق عليهم وأنهم لو كفوا أيديهم عن إعطائهم جاعوا وتفرقوا عن رسول الله ﷺ وهم فى زعمهم هذا واهمون ، فما هذا هو شأن المسلمين ؛ إنهم بايعوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - على بذل النفس والنفيس بأن لهم الجنة فكيف بهم يتفرقون عنه لعرض من أعراض الدنيا ؟ فضلًا على أنه - سبحانه - رازقهم وقائم بأسبابهم جميعا ، فإن خزائن السموات والأرض ومفاتيح الرزق والمطر والنبات لله وحده لاشريك له فيها يعطيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء لامكره له ولا معقب لحكمه (ولَكِنَّ الْمُنافِقِينَ لَايَفْقَهُونَ) أى : ولكن هؤلاء لا يفهمون ولا يفطنون لذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان وما تطوع لهم أنفسهم من سخف القول وسقط الكلام .

٨- (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى : يقول عبد الله بن أُبى رأس النفاق ومن معه عند العودة من غزوة بنى المصطلق : والله لئن عدنا إلى المدينة - لايكون فيها مقام ولا مأوى لأولئك المهاجرين الذين ضممناهم وآويناهم وأطعمناهم فتطاولوا علينا ونالوا منا وهم فى غربة وفقر وليس لهم ما يمنعهم منا فلنخرجنهم من ديارنا فنحن الأعز وهم الأذل .

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ) أى : ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين ، وعزهم كان بنصرته - تعالى - إياهم وإظهار دينهم على سائر الأديان .

(وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) ولو علموا ذلك ما قالوا مقالتهم هذه . قال صاحب الكشاف فى قوله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) وهم الأخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين ، وعن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أن رجلًا قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيها (كبرا) فقال : ليس بتيه ولكنه عزة ، فإن هذا العز الذى لا ذل معه والغنى الذى لا فقر معه وتلا هذه الآية . قال بعض العارفين

فى تحقيق هذا المعنى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه ؛ فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامه عن أن يضعها لأمور عاجلة دنيوية ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها ، فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود ، والضعة مذمومة ، والكبر مذموم والعزة محمودة .

فإن قيل : قال تعالى فى الآية الأولى : (لَا يَفْقَهُونَ) وفى الآية الأخرى : (لَا يَعْلَمُونَ) فما الحكمة فيه ؟ فنقول : ليعلم بالأول (لَا يَفْقَهُونَ) قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثانى (لَا يَعْلَمُونَ) كثرة حماقتهم وجهلهم [١] .

قيل : عند العودة من غزوة بنى المصطلق أراد عبد الله بن أبى بن سلول أن يدخل المدينة فاعترضه ابنه حباب وهو عبد الله بن [٢] عبد الله بن أبى ـ وكان مخلصا فقال لوالده : وراءك لاتدخلها حتى تقول : رسول الله الأعز وأنا الأذل فلم يزل حبيسا فى يده حتى أمره رسول الله ﷺ بتخليته ، وروى أنه قال لوالده : لئن لم تُقِر لله ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك فقال : ويحك أفاعل أنت ؟ قال : نعم فلما رأى منه الجد قال : أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فقال رسول الله ﷺ لابنه : (جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا) .

---

(١) عن الفخر الرازى بتصرف يسير .

(٢) غير رسول الله ﷺ اسمه إلى عبد الله وقال : (إن حبابا اسم شيطان) .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١))

المفــردات :

(لَاتُلْهِكُمْ) : لايشغلكم الاهتمام بها .

(لَوْلَا) : هلا والمراد بها هنا التمنى .

التفسـير

١٠ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ...) الآية :

حذر الله المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين فنهاهم بقوله ـ سبحانه ـ : (لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ) أى : لاتشغلكم أموالكم بالسعى فى تدبير أمرها والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة أو العمل على زيادة غلتها ، والتلذذ بها والاستمتاع بمنافعها . (وَلَآ أَوْلَادُكُمْ) وذلك بفرط السرور بهم ، وشدة الشفقة عليهم والقيام بما يصلحهم فى أمر معاشهم فى حياتكم وبعد مماتكم ، وقد عرفتم ـ أيها المؤمنون ـ قدر منفعة الأموال والأولاد فى جنب ما عند الله لايشغلكم ذلك (عن ذِكْرِ اللهِ) وأداء ما طلبه رب العزة منكم ، ولتعلموا أن لكلٍّ حقًّا ، والمؤمن الكيس من يؤدى لكل ذى حق حقه دون حيف أو تفريط . (وَمَن يَفعَلْ ذَٰلِكَ)

أى : اللّهو بها عن ذكر الله (فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى : فهؤلاء هم الذين أوغلوا فى الضياع وتناهوا فى الخسران حتى كأنه لا خسران إلّا فيهم وذلك لأنهم باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى .

١٠ ـ (وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ) :

بعد أن نهى الله المؤمنين عن التلهى والاغترار بالمال والولد أمرهم ـ جل شأنه ـ أن يتحلوا ويتزينوا بالطاعة وذلك بإنفاق بعض ما أفاء الله عليهم ورزقهم به فى سبيله ـ سبحانه ـ فكان الأمر ـ كما يقولون ـ التخلية قبل التحلية أى : التبرى والتطهر من الذنب أولًا ثم فعل الطاعات بعد ذلك على نقاء قلب وطهارة سريرة ؛ ليكون ذلك أرجى فى القبول لدى الله ، أى : ابذلوا وأعطوا من أموالكم قبل أن يشارف أحدكم الموت ويرى دلائله وأماراته فيكون منه أن يتمنى أن يرجئ الله أجله ويؤخر حيْنَهُ إلى أمد قريب وأجل قصير كى يتصدق ، ويكون من الصالحين الأتقياء .

وعن ابن عباس : تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل .

١١ ـ (وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

ولكن أنّى له ذلك وكيف يتحقق ما يتمناه والله العلى القدير يقول : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »[1] .

أى : ولن يمهل الله نفسًا حان أجلها وانتهى الزمان الذى حدد الله لها من أول العمر ـ إلى آخره .

(١) سورة النساء : الآية ١٨ .

(وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : عالم ببواطن أموركم أو خبير بمعنى مخبر أى : يخبركم وينبئكم بما تعملونه ويجازيكم عليه .

قال الفخر الرازى : فقوله : (لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ) تنبيه على الذكر قبل الموت ، (وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) تنبيه على الشكر لذلك ، وقوله تعالى : (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : لو رُدّ إلى الدنيا ما زكى ولا حج ويكون ذلك كقوله : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ »[1] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٢٨ .

سورة التغابن

هذه السورة الكريمة مدنية وآياتها ثمانى عشرة آية

وسميت بهذا الاسم لورود كلمة التغابن فى الآية التاسعة منها.

مناسبتها لما قبلها :

أن الله ـ سبحانه ـ ذكر فى السورة التى قبلها حال المنافقين، وكذبهم فى أيمانهم واستكبارهم على الله ورسوله، وتهديدهم المؤمنين بمنع الإنفاق عليهم وإخراجهم من المدينة وفى سورتنا هذه قسَّم الناس إلى مؤمن وكافر، وأيضًا فقد جاء فى سورة (الْمُنَافِقُون) قوله ـ تعالى ـ: (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ) وذكر هنا قوله ـ تعالى ـ: (إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) فجاءت هذه الآية الأخيرة كالتعليل للآية السابقة؛ فالمناسبة بين السورتين والارتباط بينهما واضح وبيِّن.

بعض مقاصد هذه السورة :

١ ـ أكدت أنه ـ جل شأنه ـ هو صاحب الملك، وأنه وحده المستحق للحمد.

٢ ـ وجاءت مبينة آثار عظمة الله وقدرته فى خلقه.

٣ ـ وقسمت الإنسان إلى مؤمن بربه وكافر به.

٤ ـ ولفتت نظر الكافرين إلى مصير أمثالهم من الأمم السابقة، وما حل بهم فى الدنيا من الوبال والدمار، وأنهم فى الآخرة سيلقون جزاء عملهم فى النار خالدين فيها، كل ذلك بسبب كفرهم وعنادهم.

٥ ـ وأمرت بطاعة الله ورسوله وبينت أن الرسول ليس عليه تبعة أعمالهم (فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ).

٦ ـ وحذرت من طاعة بعض الأزواج والأولاد لعداوتهم حيث يحولون بينهم وبين عمل الخير، وقد يدفعونهم إلى الشر والباطل مع بيان أن الصفح والعفو والغفران عنهم أولى وأفضل (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

٧ ـ وأمرت السورة الكريمة بالتقوى جهد الطاقة ، والبذل فى سبيل الله إذ أنه وقاية من الشح والحرص : (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤))

المفردات :

(يُسَبِّحُ) : يقدس وينزه .

(وَصَوَّرَكُمْ) : وخلقكم وبرأكم على صور وهيئات شتى يتميز بها كل واحد عن سواه .

(الْمَصِيرُ) : المرجع والمآل .

(ذَاتِ الصُّدُورِ) : ما انطوى واستتر فيها .

التفسير

١ ـ (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : ينزه اللهَ ـ تعالى ـ ويقدسه كل مخلوقاته عمَّا لا يليق به ، من كل نقص لا يتفق

وجلاله تنزيهاً مستمرًا يتجدد كلما نظروا فى بديع صنعه وعظيم فعله ، وله لا لغيره ــ جلت قدرته ــ الملك قديماً بلا ابتداء وأبدًا بلا انتهاء فهو ــ سبحانه ــ المبدئ لكل شيء القائم به المهيمن عليه ، أما ملك غيره فهو حادث وطارئ ومنتقل لا يدوم وهو فى الحقيقة عطاءُ الله وفضله وتسليط منه واستخلاف .

وهو ــ تعالت عظمته ــ وحده المستحق للحمد ؛ لأنه هو المعطى لأصول النعم وفروعها ، أما حمد غيره ــ تبارك ربنا وتعالى ــ فلجريان إنعامه على يديه ، وهو ــ سبحانه ــ قدير مقتدر على كل شيء دق أو عظم فليس بعض الأمور أيسر عليه من غيره ؛ فالكل فى قبضته ووفق إرادته لا يعجزه أمر عن أمر ولا يشغله شأن عن شأن .

والتسبيح والتقديس يكون بهيآت المخلوقات وأشكالها البديعة التى تدل على كمال تصويره وعظيم خلقه ــ سبحانه ــ أو بلسانهم ونطقهم : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » [1] .

٢ ــ (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

هذا بيان لبعض آثار قدرته الشاملة الغامرة ، أى : هو الذى أوجدكم كما شاء على فطرة سليمة وطريقة سوية مستقيمة يشير إلى ذلك قوله ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) .

(فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ) أى : فبعضكم مختار للكفر بالله وبنعمه ومقبل على الإلحاد راض به وذلك يكون منه انتقاضا وخروجا وتمردا على الفطرة التى فطره الله عليها ، وبعضكم مختار للإيمان به ــ سبحانه ــ ينشرح به صدره ويطمئن قلبه وهذا من المؤمن استجابة لفطرة الله وخلقته وإذعانا لمشيئته .

وفى الحق إن كلاً من كفر الكافر وإيمان المؤمن بإرادته ــ جل شأنه ــ فلا مكره له إذ هو الخالق والموجد لكل شيء ، قال تعالى : « ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٤٤ .

فَاعْبُدُوهُ »[١] ولكونه ـ جلت قدرته ـ عليمًا بما خلق فقد كتب على كلٍّ ما تختار ، وتميل إليه نفسه إذ هو أحكم الحاكمين «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»[٢] فلا يكره أحدًا على أمر ويعاقبه عليه. (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أى : وهو ـ سبحانه ـ بأعمال خلقه عليم علمًا تامًا محيطًا لا يعتريه قصور ولا تشوبه شائبة من نقص ؛ بل يجازى كلاً بما يناسب ما قدّم فى دنياه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وقدم الكافر على المؤمن لكثرة الكافرين وقلة المؤمنين قال تعالى : « وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ »[٣]

٣ ـ (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) :

أى : أوجد السموات والأرض جميعا بما فيهن ما ظهر لنا وبدا وما بطن وخفى ، خلقها بالحكمة العظيمة والغرض الصحيح المتضمن للمصالح الدينية والدنيوية .

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) أى : برأكم وأخرجكم فى أحسن تقويم وأجمل تركيب وشكلكم على صور شتى يتميز بها كل مخلوق عمن سواه ، وأودع فيكم القوى والقدر والمشاعر الظاهرة والباطنة التى تتعلق وتناط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة ، وزينكم بخلال وصفات من جميل مصنوعاته ، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته ، وجعلكم أنموذج جميع مخلوقاته فى هذه النشأة ،[وقد ذكر بعض المحققين : أن الإنسان جامع بين العالم العلوى والسفلى وذلك لروحه التى هى من عالم المجردات ، وبدنه الذى هو من عالم الماديات] .

وخص بعضهم الصورة بالشكل المدرك بالعين فكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن ، ولكنَّ الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب . .

فلا نحطاط بعضها ونزوله عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيناً ، وإضافتها إلى الموفى عليها

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٠٢ .

(٢) سورة فصلت : من الآية ٤٦ .

(٣) سورة الأنعام : من الآية ١١٦.

والأفضل منها قد لا تستملح ، وإلا فهى داخلة فى حيز الحسن غير خارجة عن حدّه ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ، ثم ترى أملح منها وأعلى فى مراتب الحسن ، فينبو عن الأُولى طرفك وبصرك وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها .

قالت الحكماء : شيئان لاغاية لهما الجمال والبيان[1] :

قال القرطبى : فإن قيل : كيف أحسن صورهم ؟ قيل له : جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورة بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب .

(وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) أى : إليه وحده لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكاً يكون مرجعكم ومآلكم فاصرفوا ووجهوا ما حباكم ربكم من النعم وآثركم به إلى ما خلقت تلك النعم له كما أمركم بذلك ولا تتخذوها عوناً على معصية الله حتى لا تتعرضوا لعذابه فى الآخرة ، وحتى لا يزيل الله حسنكم ويمحو جمال صوركم .

٤ ـ (يَعْلَمُ مَافِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

أى : يعلم ـ سبحانه ـ كل مافى السموات والأرض من الأُمور الكلية والجزئية الجلية الواضحة والخفية المكنونة يعلمها ـ عزت قدرته ـ علماً تاماً محيطاً فى كل أطوارها وأحوالها ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ولا فى غيرهما مما استأثر الله بعلمه ولم يُطلع عليه أحدًا من خلقه ، كما يعلم ـ تعالى ـ ما يشتمل عليه كونه مما نراه من أجرام ومجرات وغيرها وما بداخل الإنسان نفسه وقد عجز عن إدراك كنهه والوقوف على حقيقته ، ويعلم ما يسر به الإنسان إلى غيره ويناجيه به «مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا »[2] ويعلم ويحيط.

---

(١) الآلوسى بتصرف يسير .

(٢) سورة المجادلة:من الآية ٧ .

بما يعلنه أى إنسان قبل أن يفضى به ويعلنه كما علمه بعد أن أبانه وأظهره (وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : بما يتردد وتنطوى عليه الصدور وما تتحدث به النفوس وما هو مضمر ومخزون فى طيات القلوب .

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦)

المفـــردات :

(وَبَالَ) : عقوبة ونكال .

التفسير

٥ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

الخطاب هنا لأهل مكة والاستفهام فى قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ) للتقرير أى : أنه - ولا شك - قد أتاكم خبر وشأن من كان قبلكم من الأمم التى كذبت برسلها كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فكانت عاقبة أمرهم ونهاية حالهم أنهم نالوا ضررًا ثقيلاً وخيماً من غير مهلة ولا إرجاء جزاء ما أحدثوه من أمر هائل وجناية عظيمة ، وهو كفرهم الذى أصروا عليه ، وكان عقابهم فى الدنيا الصيحة والرجفة والخسف والإغراق وغير ذلك قال تعالى : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1]

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٤٠

ولهم فى الآخرة مع هذا الخزى والنكال عذاب عظيم الإيلام لهم شديد الوقع عليهم .

٦ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللهُ ...) إلخ .

أى : هذا العذاب والتنكيل الذى ذاقوه ونالوه فى الدنيا وما سيلقونه وينزل بهم فى الآخرة بسبب أنه كانت تـأتيهم رسلنا إليهم بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات (فَقَالُوٓا) . مستهزئين بأنبيائهم ساخرين منهم أو متعجبين منكرين : (أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا) أى : أيرشدنا ويدلنا بشر من جنسنا ، أنكروا أن يكون الرسول بشرًا ولم ينكروا أن يكون الإله حجرًا (فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا) أى : فأسرعوا وبادروا إلى الكفر دون تدبر ولا رويَّة وأعرضوا وأوغلوا فى البعد عن التأمل والتفكر فيما جاءهم به الرسل من الآيات البينات (وَاسْتَغْنَى اللهُ)أى : أظهر الله غناهم عن إيمانهم وعن طاعتهم حيث لم يلجئهم إلى ذلك ولم يضطرهم إليه مع قدرته - سبحانه - على ذلك بل أهلكهم وقطع دابرهم واستأصل شأفتهم (وَاللهُ غَنِيٌّ) أزلاً وأبدًا غير محتاج إلى أحد من خلقه فضلا عن إيمانهم وطاعتهم فهو - سبحانه - قائم بذاته وقائم بأسباب مخلوقاته وهو القاهرفوق عباده . (حميد) أى : يحمده ويثنى عليه كل مخلوق بلسان حاله أو مقاله (فنى كل شئ له آية تدل على أَنَّهُ الواحد) أو هو - سبحانه - حقيق بالحمد مستحق له وإن لم يحمده - جل شأنه - حامد .

وفى تذييل الآية الكريمة ، بهذه الفقرة ما يشير إلى أنه - تعالى - لم يطرأ عليه الاستغناء عن خلقه بل هو - جل شأنه - قديم الغنى أبدى الاستغناء عنهم حيث كان ، ولم يكن شىء معه .

(زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾)

المفـــردات :

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا) : الزعم ادعاء العلم أى : ادعوا ذلك كذبا .

(يَوْمُ التَّغَابُنِ) : التغابن تفاعل من الغبن وهو النقص وفوت الحظ ، وقال الراغب : الغبن أن يبخسك صاحبك فى معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء . وسمى يوم القيامة بذلك ؛ لأن الكافر غبن نفسه وظلمها بترك الإيمان ، أما المؤمن فقد غبن بتقصيره فى الطاعات والإتقان .

التفســير

٧ - (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

أي : ادّعى هؤلاء الكفار دون دليل ، وقالوا من غير حجة ولا برهان أنهم لن يبعثوا من قبورهم ولن تكون لهم حياة أخرى بعد موتهم ، وقد حكى القرآن الكريم قولهم فقال تعالى : « وَقَالُوٓا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[1] فقولهم باطل وإدعاؤهم كذب وافتراء وقد جاء فى الأثر : (زعموا مطية الكذب) وقال شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا . و (بَلَى) حرف جواب إثبات لما بعد (لَنْ) أى : ليس الأمر كما زعمتم وأقسم بربى لتخرجن من قبوركم أحياء ولتنشرن ، ثم بعد البعث والنشور ينبئكم الله ويخبركم بما كنتم تعملون وذلك الإخبار إما عن طريق الملائكة من الله أو بما ترونه مسطوراً فى كتبكم التى تأخذونها بشمائلكم ومن وراء ظهوركم ، وتقولون عند ذلك : « يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »[2] ولتحاسبن وتجزون بأعمالكم (وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) أى : وأمر ذلك الذى يحدث يوم القيامة من البعث والجزاء هين على الله ؛ لتحقق قدرته – سبحانه – على ذلك ؛ فلا يصرفه عنه صارف ولا يحول دونه حائل .

٨ – (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

بعد أن تبين لكم واستقر فى نفوسكم ووعته قلوبكم –وإن كنتم تجحدونه عناداً واستكباراً– أن ما أتى به الرسول ﷺ وما يخبر به صدق وحق لامرية فيه : فأولى بكم وأجدر أن تسارعوا وتبادروا بالإيمان بالله – سبحانه – رباً وبمحمد – عليه الصلاة والسلام – رسولاً ، وبالقرآن الذى أنزلناه كتاباً هادياً ومرشداً وسراجاً منيراً . وفى تسمية القرآن نوراً ما يومىء ويوحى بأن الكافر به قد عمى قلبه ، وختم الله على سمعه وبصره وصار كالأنعام بل هو أضل ، وسمى بذلك أيضاً ؛ لأنه بإعجازه بيّن بنفسه مبين لغيره كما أن النور كذلك (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى وهو – جلت قدرته – بالذى تعلمونه من بواطن أموركم مهما بالغتم فى إخفائه وأعملتم الحيل فى ستره هو – سبحانه – عليم به علماً كاملا تاماً لا تخفى عليه خافية ، وقيل : خبير بمعنى مخبر أى : يخبركم وينبئكم بما حدث منكم فى الدنيا ويحاسبكم عليه وعلى هذا يكون كالتأكيد لقوله تعالى فى الآية السابقة : (ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ) .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٢٩

(٢) سورة الكهف : من الآية ٤٩

٩ ـ (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ...) الآية .

المراد بيوم الجمع يوم القيامة ، وهوظرف والعامل فيه قوله (لَتُنَبَّؤُنَّ) أى : والله لتنبؤن وتخبرن بما عملتم يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين ؛ ليحاسب كلاً على ما قدم من خير أوشر (ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) أى : يوم القيامة هو يوم التغابن على الحقيقة ؛ لأنه لايستدرك أبدا أما تغابن الدنيا فهو زائل وإن جل وعظم ، وتغابن السعداء يوم القيامة على الزيادة فى الإحسان وتغابن الكفار يظهر بترك الإيمان قال النبى ﷺ : « ما من أحد يموت إلا ندم ، قالوا : وما ندامته يارسول الله ؟ قال : إن كان محسناً ندم أن لايكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع » رواه الترمذى عن أبى هريرة[1] .

وقيل التغابن ليس على الحقيقة ؛ أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنهم قالوا يوم غبن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار فالتفاعل فيه ليس على ظاهره كما فى التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد اختير للمبالغة وهو أمر واضح إذليس هناك غبن ولا بخس ولا نقص . من جانب أهل النار لأهل الجنة ، وقال بعضهم : يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لوكانوا سعداء وبالعكس فى الصحيح عن رسول الله ﷺ (ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرًا وما من عبد يدخل النّار إلا أُرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة) وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة إذا غلب ونقص بعضهم بعضاً ، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم لايغلبون ولايغبنون السعداء بنزولهم منازل الأشقياء فى النار (وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) . هذا وعد من الله لمن يؤمن به ـ سبحانه ـ وتنطلق جوارحهم بالعمل الصالح والكلم الطيب بأن الله يغفر ذنوبهم ويمحو زلاتهم ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار مخلدين

(١) أخرجه الترمذى المجلد الرابع ص ٢٩ ، ٣٠ أبواب الزهد عن أبى هريرة وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه .

وباقينَ فيها أبدًا لا ينفكون عنها ولا يزايلونها ، وأبان لهم – وقوله الحق – بأن ماسيلقونه فى الآخرة من النعيم الدائم فى الجنة هو الفوز والظفر العظيم والغُنْم العميم الذى لافوز ولامغنم وراءه إذ فيه النجاة من النار وهى أعظم المهلكات .

هذا مع الظفر بالجنة وهى أجل الرغبات ومنتهى السعادات قال تعالى : « فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ »[1] .

وهذا الجزء من الآية الكريمة يفتح باب الرجاء أمام الكافرين حيث يبين لهم أن رحمة الله عظيمة رحيبة تتسع وتشمل كل من يقبل عليه – سبحانه – مؤمناً به وقد قرن إيمانه وبرهن عليه بالعمل الطيب والفعل الحسن .

١٠ – (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

بعد أن بين الله جزاء المؤمنين الصالحين أتبعه بمآل الكافرين المكذبين ؛ ليكون الناس على بصيرة من أمرهم ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، وحتى لاتكون لهم على الله حُجة ، أى : والذين جحدوا وأنكروا وجود الله المتفرد بالوحدانية والذى ليس كمثله شىءٌ ، وكذبوا رسوله فيما جاء به من عند ربه من آيات واضحات ومعجزات باهرات أولئك الذين تلازمهم النَّار و تصاحبهم لايجدون عنها فكاكا ولا منها مخرجاً ولا مخلصاً .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى : وقبح وساء المرجع : والمآل مصيرهم ونهاية أمرهم . وأى : مرجع أشد سوءا من أن تكون الجحيم هى المأوى ؟

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ١٨٥

(مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾)

التفسير

١١ ـ (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

قيل فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : إن الكفار قالوا : لوكان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله من مصائب الدنيا ، فبين الله ـ تعالى ـ أنَّ ما أصاب من مصيبة فى نفس أومال أو قول أو فعل يقتضى همًّا أو يوجب عقاباً عاجلا أو آجلا فبعلم الله وقضائه .

(وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) أى : ومن يصدق ويعلم أنه لا مصيبة إلاَّ بإذن الله وإرادته يثبت قلبه على الإيمان ويقول عند نزول المصيبة : (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وقال ابن عباس : هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين ؛ ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقال الكلبى : هو إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر . (وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) أى :فهو ـ سبحانه ـ بكل شىء عظم وظهر أو خفى ودق محيط وعالم علماً تاماً فلا يخفى عليه تسليم من أذعن ورضى وانقاد لأمره ـ تعالى ـ ولا سخط ولا كراهة من غضب وتمرد على قضائه وقدره .

١٢ ـ (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

(وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) أى :انقادوا لما طلبه ربكم منكم فأتمروا بأمره وانتهوا عما نهاكم عنه وأطيعوا رسوله ﷺ فخذوا ما آتاكم به من عند الله واتقوا ماخوفكم

منه واحذروا أن تخالفوا عن أمره أو أن تتركوا سبيله ونهجه ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ : أى :فإن أعرضتم وأدبرتم وتركتم الإصغاء له والائتمار بأمره فليس هذا بضار الرسول شيئاً ؛ فلا تناله تبعة إعراضكم ، ولا ينقص ذلك من منزلته وجزائه لدى ربه ، إذ هو غير مكلف بهدايتكم ولا هو مسيطر عليكم ولا يملك إسعادكم ، وإنما ضرر التولى والإعراض عائد وراجع عليكم فليس على رسولنا الذى اصطفيناه واخترناه إلا أن يرشدكم ويدلكم على الصراط المستقيم وذلك بأن يبلغكم رسالتنا تبليغاً بيناً واضحاً ولايكتم منها شيئاً وهو ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة فجزاه الله عن أمته خيرا .

١٣ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ :

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : الله وحده هو الإله الذى لا معبود بحق سواه وكل ماخلاه باطل ومعبوداتكم كلها مخلوقة ومربوبة له - سبحانه - ولا تضر ولا تنفع ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى :وعلى الله وحده دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكاً ،يعتمد ويلتجئ المؤمنون فى جميع شئونهم :لأنه - تعالى - هو وحده القادر على عونهم والقيوم بأمورهم كلها : وليس لغيره من أربابكم وآلهتكم المزعومة ولا نسواها شئ من ذلك .

قال الصاوى : وهو تحريض وحث للنبى ﷺ على التوكل على الله والالتجاء إليه ، وفيه تعليم للأمة ذلك بأن يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده .

وفى هذه الآية إيماء إلى أن من لم يتوكل على الله فليس بمؤمن .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾)

المفـــردات :

(فَاحْذَرُوهُمْ) : فكونوا منهم على حذر ولا تطيعوهم .

(تَعْفُوا) : تتركوا العقوبة .

(تَصْفَحُوا) : تعرضوا عن التعيير والتأنيب .

(تَغْفِرُوا) : تستروا ذنوبهم وإساءاتهم .

(فِتْنَةً) : ابتلاءً واختبار .

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) : ومن يكن فى وقاية وحفظ من البخل والحرص . .

(إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا) : إن تبذلوا أموالكم ابتغاء وجه الله .

(شَكُورٌ) : عظيم الفضل والإحسان بإعطاء الجزيل على القليل .

التفسـير

١٤ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أخرج الترمذى والحاكم وصححاه وابن جرير عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية فى قوم من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فرأوا الناس قد فقهوا فى دينهم هَمُّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله الآية وفى رواية أخرى عنه أنه قال : « كان الرجل يريد الهجرة فيحبسه امرأته وولده فيقول : أما والله لئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن فجمع الله ـ عز وجل ـ بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله ـ تعالى ـ الآية .

وهذا وإن كان سبب نزول تلك الآية فالعبرة بعموم لفظها لابخصوص سببها ؛ فتشمل كل زوج وولد يلحق الضرر بزوجه أو بوالده ، هذا ولا نزال نسمع ونرى من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم ، ويجلبن عليهم الشر والضرر ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى ، وكما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدوًّا كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوًّا بهذا المعنى بعينه وقيل : إن عداوتهم من حيث أنهم قد تحملهم مودتهم والحرص عليهم على السعى فى اكتساب الحرام وارتكاب الآثام لمنفعة الأزواج والأولاد ويشير إلى ذلك قوله ﷺ : (يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يعيرانه بالفقر فيركب مراكب السوء فيهلك) (فَاحْذَرُوهُمْ) أى : كونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرورهم (وَإِن تَعْفُوا) عن ذنوبهم وتتجاوزوا عن سيئاتهم التى تقبل العفو بأن تكون متصلة ومتعلقة بأمور الدنيا كإضاعة المال ونحوه ، أو مرتبطة بأمور الدين كالعقوق وسوء العشرة وترك مأمور به أو فعل منهى عنه ولكن أعقبتها التوبة . والعفو يكون بترك العقوبة (وَتَصْفَحُوا) أى :تعرضوا عن هذه الخطايا بترك التعيير بها والتأنيب والتثريب عليها (وَتَغْفِرُوا) أى :تستروها بإخفائها وتغطيتها تمهيدًا لنسيانها حتى لا يؤدى التذكير بها إلى العودة إليها والتمادى فيها . (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ) المراد أنه يعاملكم بمثل ما عاملتم ويتفضل عليكم فإنه - عز وجل - عظيم الغفران واسع الرحمة ، واستدل بعضهم بهذه الآية على أنه لاينبغى للرجل أن يحقد على زوجه وولده إذا ألحقوا به ضررًا أو جنوْا معه جناية وأن لا يدعو عليهم .

١٥ - (إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) :

(إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) : أى : ما أموالكم ولاأولادكم إلا بلاء واختبار لكم قد يحملكم ويدفعكم إلى كسب المحرم ومنع حق الله ، ويوقعكم فى الإثم والشدائد والمصائب الدنيوية فلا تطيعوهم فى معصية الله .

وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم اللهم اعصمنى من الفتنة فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ولكن ليقل : اللهم إنى أعوذ بك من مضلات الفتن ، وقال الحسن فى قوله تعالى : (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ) أدخل من للتبعيض ؛لأن كلهم ليسوا أعداء ولم يذكر من فى قوله تعالى : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) ؛ لأنهما لايخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

روى الترمذى وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال :(رأيت النبى ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين - رضى الله عنهما - وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل ﷺ فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال :«صدق الله (إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما»ثم أخذ فى خطبته) .

وقدمت الأموال فى الآية الكريمة ؛ لأنها أعظم فتنة قال تعالى : « كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰٓ »[1]. وأخرج الإمام أحمد وغيره وصححه الحاكم عن كعب بن فياض قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أُمتى المال) (وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) أى :وعند الله فى الدنيا والآخرة ثواب جزيل وعطاء عظيم لمن آثر محبة الله

(١) الآيتان:٦ ، ٧ من سورة العلق .

ومرضاته على محبة الأموال والأولاد ، وقدم طاعة الله على السعى والكد فيما يعود على أولاده بالجاه والمال بوجه يخرج بهم عن مرضاة ربهم .

وقيل :المراد من الأجر العظيم هو الجنة فهى نهاية الأرب وغاية الطلب ولا أجر أعظم منها وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :(إن الله يقول لأهل الجنة ياأهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدًا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا : يارب وأى شىءٍ أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا) .

١٦ ـ (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

(فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) أى : ابذلوا فى تقواه ـ جل شأنه ـ جهدكم وطاقتكم ولاتدخروا منها شيئاً ؛ فإن ما عند الله خير وأبقى .

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله ـ تخفيفاً على المسلمين ـ (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فنسخت الآية الأولى . وعن مجاهد المراد أن يطاع ـ سبحانه ـ فلا يعصى ، قال الآلوسى ، والكثير على أن هذا هو المراد فى الآية .

(وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ) أى :اسمعوا كلام الله ورسوله سماع تدبر وتفكر وأطيعوا أوامره ـ عز وجل ـ واجتنبوا نواهيه وابذلوا فى وجوه البر التى أمركم ـ سبحانه أن تنفقوا فيها إنفاقا خالصاً لوجهه ـ تعالى ـ دون رياء أو سمعة ، وافعلوا كل عمل طيب يكن ذلك خيرًا لكم وأنفع بكم (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى : والذين جعلهم الله فى وقاية وحفظ من بخل النفس وحرصها فأولئك هم فى فوز كبيرٍ وفلاح عظيم حتى كأنهم وحدهم هم الذين ظفروا بذلك ونالوه .

١٧ - (إن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ) :

(إن تُقْرِضُوا الله قَرْضاً حَسَناً ...) أى : إن تعطوا أموالكم وتبذلوها ابتغاء وجه الله طيبة بها نفوسكم فإنها تكون محفوظة لديه - سبحانه - ينميها لكم ويربيها ، وتكون مخلوفة عليكم لايذهب ثوابها ولا يضيع جزاؤها فهى لدى أغنى الأغنياء وأكرم الكرماء وهو الوهاب المعطى وبيده خزائن السموات والأرض يجعل لكم بالواحد عشراً إلى سبعمائة ضعف أو أكثر قال تعالى : «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ»[1] وهو - سبحانه - مع ذلك يتفضل عليكم - جزاء إنفاقكم - بغفران ما فرط وبدر منكم من بعض الذنوب (وَاللهُ شَكُورٌ) أى : وهو - تعالت عظمته - وافر الفضل والعطاء لعباده الذين امتثلوا أمره وذلك بأن يعطيهم الجزيل العظيم على على النزر القليل والعمل اليسير ، (حَلِيمٌ) : عظيم الحلم يمهل عباده فلا يعاجلهم بالعقوبة على ما اقترفوه من آثام ويمد لهم كى يتوبوا ويرجعوا إليه وذلك رحمة بهم .

١٨ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : أنه - سبحانه - يعلم ما غاب وأخفته القلوب فى أثنائها كعلمه - جل شأنه - ما هو ظاهر وحاضر للعيان (العَزِيزُ) الذى لا يماثله ولايناظره أحد ولا يُقْهر ولا يُغلب بل هو القاهر فوق عباده (الحَكِيمُ) الذى يُجرى كل أمر على مقتضى حكمته وتدبيره وإرادته .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٦١ .

سـورة الطلاق

مدنيـة وآياتهـا اثنتـا عشرة

وتسمى سورة النساء القُصْرى . كذا سماها ابن مسعود كما أخرجه البخارى وغيره

مناسبتها لمـا قبلهـا :

لَمَّا ذكر – سبحانه – فى السورة السابقة « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » ، وكانت العداوة قد تفضى إلى الطلاق ذكر – جل شأنه – هذا الطلاق ، وأرشد إلى الانفصال منهن على الوجه الجميل ببيان الطلاق السنى وكيف يكون ؟ وذكر أيضًا مايتعلق بالأولا د فى الجملة .

اهم اغراض السورة :

دعت الأزواج إذا تعذر استمرار العلاقة الزوجية إلى سلوك أفضل الطرق فى الطلاق وذلك بأن يكون عند استقبالهن العدة ، وهو الطلاق السنى الذى يكون فى طهر لاجماع فيه كما دعت إلى ضبط العدة بدءًا ونهاية ، وحذرت من إخراج المطلقات من بيوتهن أو أن يخرجن بدون سبب يدعو إلى ذلك ، وتوعدت من يتعدّى شرائع الله ويستهين بها : (وَمَن يَتَعدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) .

ثم تناولت الأحكام التى تترتب على قرب انتهاء العدة من إمساكهن بمعروف أو مفارقتهن بمعروف مع إشهاد ذوى عدل منكم شهادة خالصة لوجه الله فى حالتى الفرقة والإمساك : (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ...) الآية .

وبينت العدة لمن لم تحض لصغرها أو انقطع الحيض عنها لكبرها . كما بينت العدة لأُولَات الأحمال : (وَاللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ ...) الآية .

وأبرزت الأمر بسكنى المطلقات والنهى عن الإضرار بهن ، وأكدت على وجوب نفقتهن حال الحمل ، ووجوب أجر الرضاع مع المسامحة والرفق والإحسان : (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ...) الآية .

وجهت النظر إلى أن تكون النفقة على قدر الطاقة سعة وضيقًا مع الرجاء فى فضل الله · « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ... » الآية .

وفى خلال تلك الأَحكام التشريعية كما هى سنة القرآن دعت المؤمنين إلى تقوى الله ، وذكرتهم بإرسال رسول يتلو عليهم آياته ؛ليدخلهم جنات تجرى من تحتها الأَنهار ، وحذرتهم من تعدى حدود الله ، والتهاون فيها ، وأَشارت أن لأُولئك عقابا شديدًا ، وعذابًا نكرًا .

وختمت السورة بضرب الأَمثلة بالأُمم الباغية التى عتت عن أَمر ربها فذاقت الوبال ، والدَّمار ، وببيان قدرة الله العظيمة التى تجلَّت فى خلق سَبْع سموات طِباق ومن الأَرض مثلهن . وكلها براهين وحدانيته ــ جل وعلا ــ تبارك الله أَحسن الخالقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾)

المفـــردات :

(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ) : أى : إذا أردتم تطليقهن .

(لِعِدَّتِهِنَّ) : أى : لاستقبالهن العدة بالابتداء فيها .

(لَاتُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ) : أى : من مساكنهن إلى أن تنقضى العدة .

(وَلَايَخْرُجْنَ) : بإذن أو بدونه فى مدة العدة .

(إِلَّاأَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) : وتشمل الفاحشة المبينة كما قيل : النشوز والبذاء على الزوج والأحماء ، كما تشمل الزنا والسرقة وغيرهما .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) : أى : محارمه وشرائعه التى عينها لعباده .

التفسير

١ -(يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَاتُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَـأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَاتَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا) :

نزلت حينما طلق ابن عمر امرأته حائضًا على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر رسول الله ﷺ قال : ابن عمر طلق امرأته وهى حائض فقال رسول الله ﷺ : ليراجعها وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » وقرأ الآية .

وتخصيص النداء به ﷺ فى الآية مع أن الخطاب بالحكم عام ؛ لكونه - عليه الصلاة والسلام - إمام الأمة ونظير ذلك ما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كذا وكذا إظهارًا لتقدمه عليهم واعتبارًا لترؤسه فيهم ، وأنه المتكلم عنهم ، يصدرون عن رأيه ، ولايستبدون بأمر دونه لعلو قدره ، وجلالة منصبه

وقيل : إنه بعد أن خاطبه الله - سبحانه - بالنداء ، صرف عنه الخطاب لأمته تكريماً له ﷺ لما فى الطلاق من الكراهة ، والكلام على هذا على تقدير القول ، أى : قل لأمتك :(إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) .

فمعنى الآية : إذا أردتم تطليق النساء[1] وعزمتم عليه بتنزيل المشارف للأمر منزلة الشارع فيه (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) أى : مستقبلات لها بالدخول فيها ، فإن المرأة إذا طلقت فى طهر ، فإنه يعقبه القرءُ الأول من أقراء عِدتها على رأى من يرى أن العدة بالحيض[2] ، وهى القروء المذكورة فى سورة البقرة[3] وبذلك تكون قد طلقت مستقبلة لعدتها .

---

(١) المراد بالنساء المدخول بهن من المعتدات بالحيض على ما فى الكشاف وغيره .

(٢) كأبى حنيفة وكثير من علماء السلف والخلف ، وقال ابن القيم : لم يستعمل فى كلام الشارع إلا للحيض .

(٣) من الآية ٢٢٨

وفى الكشاف أن المراد من الآية أن يطلقن فى طهر لم يجامَعْن فيه حتى لا تطول العدة عليهن إذا حصل لهن حمل ، وهذا هو أحسن الطلاق ، وأدخله فى باب السنة حتى عرف بالطلاق السنى .

أما تطليقهن فى الحيض فهو الطلاق البدعى ، وهو محرم ، والآية تنهى عنه لما فيه من الإضرار بالمرأة لتطويل العدة عليها إذ أن الحيض الذى طلقت فيه لا يحتسب باتفاق ، وتفصيل تلك الأحكام تكفل بها علم الفقه .

(وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)[1] أى : اضبطوها بحفظ الوقت الذى جرى فيه الطلاق ، وأكملوها ثلاثة قروء كوامل .

(وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ) أى : خافوه وابتعدوا عن الإضرار بهن بتطويل العدة عليهن حين تختارون تطليقهن فى حيض أو فى طهر وقع فيه وطء .

وفى وصفه تعالى بربوبيته لهم تأكيد للأمر ومبالغة فى وجوب الاتقاء له ـ تعالى .

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ) من مساكنهن عند الفراق حتى تنقضى العدة ، وإضافة البيوت إليهن مع أنها للأزواج لتأكيد النهى عن إخراجهن ولبيان كمال استحقاقهن لسكناها كأنها مملوكة لهن وعدم العطف فى قوله : (لَا تُخْرِجُوهُنَّ) للإيذان باستقلال النهى عن الإخراج اعتناءً به ، والنهى عنه يتناول كل أسبابه من إكراه لهن على ترك المساكن أو لحاجة الأزواج إلى المساكن أو لغير ذلك (وَلَا يَخْرُجْنَ) من تلك المساكن التى كن فيها بإذن أو بدونه ، فكأنه قيل : لا تخرجوهن ولا تأذنوا لهن فى الخروج ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك[2] ، وقيل : المعنى ولا يخرجن باستبدادهن أما إذا اتفقا عليه جاز إذ الحق لا يعدوهما .

---

(١) المراد بقوله : « وأحصوا » الأزواج أو الزوجات أو المسلمون ، والصحيح أنهم الأزواج ؛ لأن الضمائر كلها لهم .

(٢) هذا فى الرجعة ؛ لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأى فى ارتجاعها ما دامت فى عدتها فكانت تحت تصرف الزوج فى كل وقت ، وأما البائن فليس لها شىء من ذلك فيجوز لها أن تخرج إذا دعتها إلى ذلك ضرورة .

(إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ) : استثناء من لا تخرجوهن أى :إلّا أن يأتين بأمر ظاهر القبح وهو ما يوجب حدًّا كالزنى والسرقة ونحوهما فيُخرجن لإقامة الحد ، وكذلك إذا طالت ألسنتهن وتكلمن بالكلام الفاحش القبيح على أزواجهن أو أحمائهن،وأيد بما ورد عن أبى إلّا أن يفحشن عليكم بفتح الياء وضم الحاء كما أخرجه جماعة من طرق عن ابن عباس ، وعن ابن عمر والسدى : الفاحشة خروجها من بيتها فى العدة .

ويرى الآلوسى أن المعنى : لا يطلق لهن فى الخروج إلّا فى الخروج الذى هو فاحشة ومن المعلوم أنه لا يطلق لهن فيه فيكون ذلك منعا للخروج على أبلغ وجه وامتدح هذا الوجه الإمام ابن الهمام وقال : إنه ونظائره بديع وبليغ جدًّا نحو لا تزن إلّا أن تكون فاسقا .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) إشارة إلى ما ذكر من الأحكام التى عينها لعباده ، وأشير إليها بإشارة البعيد مع قرب العهد بها للإيذان بعلو درجتها ، وبعد منزلتها (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ) بالاستهانة بها ، والإخلال بشىء منها (فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) عرضها للضرر الشديد . وهذا تقبيح لمن تعدى حدود الله (لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا . .) خطاب للتعدِّى بطريق الالتفات للزجر عن التعدى كأنه قيل : ومن يتعد حدود الله فقد أضر بنفسه فإنك لا تدرى أيها المتعدى عاقبة الأمر لعلَّ الله يُحدث فى قلبك بعد الذى فعلت من التعدى أمرًا يقتضى خلاف ما فعلت فيكون بدل بغضها محبة ، وبدل الانصراف عنها إقبالٌ عليها وبدل عزيمة الطلاق نَدَمٌ عليه ولا يتسنى تلافيه برجعة أو استئناف نكاح كأنه قيل : التزموا حدود الله فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن لعلكم تندمون ، فتراجعون وإبقاء المطلقة فى منزل الزوج يساعد على ذلك ويجعل المراجعة أيسر وأسهل .

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) : شارفن وقاربن آخر عدتهن .

(وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ) : عند الحاجة إليها واجعلوا رسالتكم خالصة لوجه الله .

(يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا) : خلاصًا مما عسى يصيب الأزواج من الغموم والمضايق .

(مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) : من حيث لايخطر بباله .

(فَهُوَ حَسْبُهُ) : كافيه ومعينه فى كل أموره .

(إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ) : يبلغ ما يريد ولايفوته مراد ولايعجزه مطلوب .

(لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) : تقديرًا وتوقيتًا .

التفسير

٢ ، ٣ ـ (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ

اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) :

المعنى : فإذا شارف المطلقات آخر العدة ، وأصبحن على وشك الانتهاء منها فأنتم معهن بالخيار فيما بقى من زمن العدة إن شئتم فأمسكوهن بحسن معاشرة واتفاق لائق وود خالص وإن شئتم ففارقوهن بإيفاء الحق ، واتقاء الضرر مثل أن يراجعها المراجعة ثم يطلقها تطويلًا للعدة (وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ) عند المراجعة أو الفرقة قطعًا للتنازع ، ومنعًا للشقاق . وهذا الأمر للندب نظير قوله تعالى : « وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » ويروى عن الشافعى وغيره أنه قال بالوجوب عند الرجعة : « وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلهِ » بأن تجعلوها لوجهه خالصة لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ، ونصرة العدل ، ودفع الضرر .

(ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) الإشارة على ما اختاره الكشاف للحث على إقامة الشهادة لله تعالى والأولى كما فى الكشاف أن تكون الإشارة إلى جميع ما ذكر من إيقاع الطلاق على وجه السنة ، وإحصاء العدة ، والكف عن الإخراج والخروج ، وإقامة الشهادة للرجعة أو الفرقة ، وفى ذلك ملازمة قوية لقوله تعالى : (وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) فإنه اعتراض مؤكد لِمَا سبق من الأحكام التى تتمثل فى أمر إجراء الطلاق على السنة ووجوب مراعاة حدود الله باتقائه فى تعديها ، فلم يضار المعتدة ، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد على كل عمله ، ومن التزم بذلك يجعل الله له مخرجًا مما عسى أن يقع فى شأن الأزواج من الهموم والغموم ، ويفرج عنه مايعتريه من الكروب فى الدنيا والآخرة ، ويرزقه من وجه لايخطر بباله ولايتوقع أن تتفتح عنه أبواب الخير وتتيسر به أسباب الرزق ، وعن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لايحتسب)[1]
وروى أيضًا عن ابن عباس قال : إن عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنه سالمًا فأتى رسول الله ﷺ فقال : أسر ابنى وشكا إليه الفاقة فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : (اتق الله وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلَّا بالله العظيم) ففعل ، فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه

---

(١) رواه الحاكم ٤ ــ ٢٦٢ .

الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت : (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) بأن يكل أمره إليه تعالى مؤثرًا له على الطمع فى غيره ، وعن تدبير نفسه ، إن فعل ذلك وتخلق به كان الله له معينًا وكافيًا فى الدنيا والآخرة[1] .

أخرج أحمد فى الزهد عن وهب قال : يقول الرب تبارك وتعالى : (إذا توكل على عبدى لوكادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج) .

« إنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ » بمعنى منفذ أمره فى كل ما كان وما يكون يبلغ ما يريد ، ولا يفوته مراد ، ولا يعجزه مطلوب « قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » تقديرًا قبل وجوده أو مقدارًا من الزمان ينتهى إليه ، ويشير التعميم فى الجملة إلى وجوب التوكل عليه تعالى ، وتفويض الأمر إليه ؛ لأنه إذا عُلم أن كل شىء من الرزق وغيره لا يكون إلَّا بتقديره سبحانه ، لا يبقى إلَّا التسليم للقدر ، والتوكل على الله تعالى .

(وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَاللَّائِى يَئِسْنَ) : أى : انقطع عنهن الحيض لكبر سنهن ، وقدر بستين أو خمس وخمسين سنة .

(إِنِ ارْتَبْتُمْ) : إن شككتم وجهلتم كيف تكون عدة اليائس .

(١) رواه السيوطى فى الدر المنثور ٨ — ١٩٧ وعزاه لابن مردويه .

(يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) : يذهبها .

(وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) : بالمضاعفة .

التفسير

٤ - (وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) :

روى أن أناسا قالوا : قد عرفنا عدة ذات الأقراء فما عدة اللائى لم يحضن ؟ فنزلت عدة الآيسة واللائى لم يحضن وأولات الأحمال ، فتذكر أن عدة اليائسة التى بلغت سن اليأس من الحيض وهى تقدر بستين سنة أو بخمس وخمسين ، ثلاثة أشهر . إن ارتبتم وأشكل عليكم حكمهن ، وجهلتم كيف يعتدون ؟ وكذلك تكون عدة الصغيرات اللاتى لم تحضن ثلاثة أشهر[1] ، وحذف بيان العدة فى النص الكريم مع اللاتى لم تحضن ثقة بدلالة ما قبله عليه .

وعدة أولات الأحمال أن يضعن حملهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن ، فقد أخرج جماعة عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهى حامل فقال : إن وضعت حملها حلت فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لحلت .

وذهب على - كرم الله وجهه - وابن عباس - رضى الله عنهما - إن الآية فى المطلقات ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها آخر الأجلين أى :الأشهر أو وضع الحمل وهو مذهب الإمامية كما فى مجمع البيان ، وقوله :

(وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) خصص به عموم قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » لتراخى نزوله عن ذلك لما هو المشهور من قول ابن مسعود - رضى الله عنه - من شاء باهلته أن سورة النساء القصرى

---

(١) فإذا رأت الدم فى زمن احتماله عند النساء، انتقلت إلى الدم لوجود الأصل كما أن السنة إذا اعتدت بالدم ثم ارتفع عادت إلى الأشهر وهذا إجماع كما قال القرطبى .

نزلت بعد التى فى سورة البقرة ، وقد صح أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لها : (قد حللت فتزوجى) .

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) أى : ومن اتقاه ـ سبحانه ـ فى شأن أحكامه ومراعاة حقوقها يسهل عليه أمره ، ويوفقه للخير ، ولكل عمل نافع . وقيل : يجعل له يسرًا أى : ثوابا .

٥ ـ (ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) .

إشارة إلى ما علم من حكم المعتدات ، وما فى الإشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الفضل ، وقد أنزله إليكم من اللوح المحفوظ (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ) فى تلك الأحكام بالمحافظة عليها (يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وفى الحديث : (وأتبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)[1] .

(وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) بالمضاعفة ، « مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »[2] .

(١) رواه أحمد عن أبى ذر : ٥ ـ ١٥٣ .
(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٦٠ .

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾)

المفـــردات :

(مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ) : الوجد مثلثة الواو الوسع والطاقة أى : أسكنوهن مكانًا من سكنكم وفق وسعكم وطاقتكم .

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ) : أى : المطلقات .

(وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ) : أى : تشاوروا وأن يأمر بعضكم بعضًا باليسر والتسامح فى الأجرة .

(وَإِن تَعَاسَرْتُمْ) : بأن كان من الأب مضايقة أو من الأم ممانعة .

(وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) : ضيق عليه فى رزقه .

التفسـير

٦ ـ (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ) :

استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عمَّا قبله من الحث على التقوى كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات ، فأجيب عن ذلك بقوله تعالى : (أَسْكِنُوهُنَّ ...) الآية .

أى : أسكنوا المعتدات مكانًا من مسكنكم الذى تسكنونه حسبا تطيقونه من وسع وقدرة ، وقد روى عن قتادة ما يؤيد ذلك حيث قال : ولتسْكُن إذا لم يكن إلَّا بيت واحد فى بعض نواحيه ، وهى واجبة باتفاق مع النفقة لكل مطلقة رجعية حاملًا كانت أو حائلًا ، أما المبتوتة وهى التى طلقت ثلاثًا ، وليست ذات حمل ، فقد اختلف فى شأنها العلماء ، فعند ابن المسيب ومالك والأوزاعى والشافعى وغيرهم ليس لها إلَّا السكنى ولا نفقة لها ، وعن الحسن ، وحماد وأحمد وغيرهم لا نفقة لها ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس قالت : إن زوجها أبتّ طلاقها فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال لها : لا سكنى لك ولا نفقة ، وأمرها أن تعتدّ فى بيت ابن أم مكتوم ، ثم أنكحها أسامة بن زيد .

وعن عمر — رضى الله عنه — أنه طعن فى هذا الحديث ، فقال : لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول لها : السكنى والنفقة ، وقد طعن فى حديث فاطمة أيضًا عائشة وسليمان بن يسار وأبو سلمة وغيرهم .

وقال أبو حنيفة والثورى : لها السكنى والنفقة ، بدليل قول عمر — رضى الله عنه — .

وقال ابن نافع : قال مالك فى قوله تعالى : (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم) يعنى المطلقات اللَّاتى بنَّ من أزواجهن ولا رجعة لهم عليهن ، ولسن ذوات حمل ، فلكل منهن السكنى ولا نفقة لها ولا كسوة ؛ لأنها بائن منه ، لا يتوارثان ولا رجعة له عليها .

فأما من لم تَبن منهن ، فإنهن نساؤهم يتوارثون ، ولا يخرجن إلَّا أن يأذن لهن أزواجهن ما كن فى عدتهن ، ولم يؤمروا بالسكنى لهن ؛ لأن ذلك لازم على أزواجهن مع نفقتهن وكسوتهن حوامل كن أو غير حوامل .

(وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ) أى : تجنبوا الإضرار بالمعتدات ، فلا تستعملوا معهن ما يؤذيهن لإلجائهن إلى الخروج كأن تنزلوا معهن من لا يوافقهن فى الجوار ، أو تشغلوا المكان بغيرهن أو نحو ذلك .

(وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) : وبوضع الحمل يخرجن من العدة .

قال كثيرٌ من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذا الحكم فى البائن ـ إن كانت حاملًا أنفق الزوج عليها مع السكنى حتى تضع حملها قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها حاملًا كانت أو حائلًا .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل ، وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالبا ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق عليها إلى الوضع ؛ لئلا يتوهم أنها لا نفقة لها نظرًا لذلك وليعلم حكم غيرها بالطريق الأولى .

أما أولات الحمل المتوفى عنهن أزواجهن فلا نفقة لهن عند أكثر العلماء ، ويرى على ـ كرم الله وجهه ـ وابن مسعود وجوب نفقتهن فى التركة من جميع المال حتى يضعن ، وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعى وأبوحنيفة لا ينفق عليها إلا من نصيبها .

(فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ) بعد انقطاع عصمة الزوجية بوضع حملهن (فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) على ما قمن به من إرضاع ثم خاطب ـ سبحانه ـ الآباء والأمهات ، ودعاهم إلى أن يتشاوروا ، فيأمر بعضهم بعضًا بمعروف أى : بجميل فى الأُجرة والإرضاع ، وذلك بحديث سمح بعيد عن المماكسة من الأَب والمعاسرة من الأُم فقال تعالى : (وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ) ، وقيل : المعروف الكسوة والدثار (وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ) أى : وإن ضيق أحدكم على الآخر بالمشاحة والمبالغة فى الزيادة أو النقص فى الأُجرة ، فسترضعه مرضعة أُخرى غير الأم ، على معنى فليطلب الأَب هذه المرضعة ، فإن لم يقبل الولد ثديها ، أُجبرت الأُم على الإرضاع بأجر المثل ، وفيه معاتبة للأُم على المعاسرة كقولك لمن تستقضيه حاجة ، فيتوانى سيقضيها غيرك ، بمعنى ستقضى وأنت ملوم .

وخصت الأُم بالمعاتبة على ماقال ابن المنير ؛ لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها وهو غير متمول ولا مضمون به فى العرف وخصوصاً من الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من

الأب فإنه المال المضمون عادة ، فالأم إذن أحق باللوم ، وأولى بالعتب خصوصاً وهى أكثر حنوا وشفقة على الوليد ، ولذلك لو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

٧ - (لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) :

المعنى : لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما يبلغه وسعه وفق ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا » أى : بقدر ما أعطاها من الطاقة والقوة ، وقيل : بقدر ما آتاها من الأرزاق قلت أو كثرت ، وفيه تطييب واستمالة لقلب المعسر ، وترغيب له فى بذل مجهوده (سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) وعد للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم عاجلا أو آجلا أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ماقدروا عليه ، ولم يقع منهم تقصير وهو على كلا الوجهين لتأكيد المعنى المراد من الترغيب فى الإنفاق قل مال المنفق أو كثر .

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾)

المفـــردات :

(عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا) : استكبرت وطغت وعتا من باب قعد .

(عَذَاباً نُّكْرًا) : منكرا شديدا والمراد عذاب الآخرة .

(فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) : أى : فتجرعت وخامة وسوء عاقبتها .

(خُسْرًا) : خسارا هائلا .

(قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) : جبريل أو النبى أو القرآن .

التفســير

٨ - (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِساباً شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا) :

يتوعد الله – سبحانه – من خالف أمره، وكذب رسله، ويخبر عما حل بالأمم السابقة بسبب ذلك فيقول تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ) أى: كثير من أهل قرية تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله، ومتابعة رسله (فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيدًا) بالاستقصاء والمناقشة لأهلها فى كل نقير[1] من الذنوب وقطمير[2] مما اقترفته جوارحهم فلا تجاوز لهم عن شىء مهما قل (وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا) أى: منكرًا عظيماً يفوق التصور حيث لم تخطر ببالهم شدته، وتعدت الاحتمال قسوته، والمراد حساب الآخرة مع ما عجل لهم فى الدنيا من العذاب بالجوع، والقحط، وسائر المصائب والبلايا.

والتعبير بالماضى فى قوله: (فَحَاسَبْنَاهَا) وفى قوله: (وَعَذَّبْنَاهَا) للدلالة على تحققهما كما فى قوله تعالى: « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ».

ويجوز أن يراد بالحساب إحصاء جميع ذنوبهم وكتابتها فى صحائف أعمالهم لدى الحفظة، وبالعذاب ما أصابهم عاجلا فى الدنيا من العقاب، ويكون الإتيان بالماضى فى (فحَاسَبْنَاهَا) وفى (وَعَذَّبْنَاهَا) على الحقيقة لوقوع الحساب والعقاب فى دنياهم.

٩ – (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا):

أى: فذاقت عقوبة عتوها وكفرها وتمردها على أوامر الله، وكانت نتيجة ذلك خسارًا شديدًا لا خسار وراءه، والمراد عقوبة الآخرة، وجىء بلفظ الماضى؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى وواقع فى الحقيقة فكأنه قد كان.

١٠ – (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا):

تكرير للوعيد وبيان لما يوجب التقوى المأمور بها بقوله تعالى: (فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ).

---

(١) النقير: النكتة فى ظهر النواة. (٢) القطمير: القشرة الرقيقة التى على النواة كاللفافة.

كأنه قيل : أعد الله لهم هذا العذاب المترقب فليكن ذلك يا أولى الألباب داعياً لكم لتقوى الله ــ تعالى ــ وحذر عقابه ، وجملة (أَعَدَّ اللهُ) إلخ استئناف يشير إلى أن عذابهم ليس منحصرًا فيما ذكر من الحساب الشديد والعذاب النكر بل لهم بعدهما عذاب شديد آخر مُعدّ لمزيد عقابهم ، وقوله :(الَّذِينَ آمَنُوا) بيان لأولى الألباب « قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا » قيل : هو القرآن لقوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » .

وقيل : هو جبريل ــ عليه السلام ــ سمى ذكرًا لكثرة ذكره أو لنزوله بالذكر الذى هو القرآن .

كما ينبئ عنه إنزال قوله تعالى : (رَسُولًا) منه .

وقيل : هو النبى ﷺ وعليه الأكثر ، وإطلاق الذكر عليه لمواظبته ــ عليه الصلاة والسلام ــ على تلاوة القرآن الذى هو ذكر ، وتبليغه والتذكير به . وعبر عن إرساله بالإنزال ؛ لأن الإرسال سبب عن إنزال بالوحى عليه ﷺ على سبيل المجاز .

١ ــ (رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً) :

(رَسُولًا) بدل جاء للبيان من قوله : (ذِكْرًا) . قال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر وتبيين له وقال أبو حبان : الظاهر أن الذكر هو القرآن ، والرسول هو محمد ﷺ .

وفى توجيه هذا الرأى أقوال : أشهرها أن رسولا منصوب بفعل محذوف تقديره أرسل دل عليه أنزل أى : أنزل لكم ذكرا ، وأرسل إليكم رسولا ونحا إلى هذا السّدى ، واختاره ابن عطية .

(يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ) نعت لقوله : « رَسُولًا » أى : أنه ﷺ يقرأ عليكم أو حال من اسم الله فى قوله تعالى : « قَدْ أَنزَلَ اللهُ ... » .

أى : أن الله تعالى يأمر أمين وحيه جبريل -عليه السلام- أن يقرأ على رسوله آياتِ الله . القرآن . واضحات جليات تبين لكم الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من أحكام دينكم (لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) المراد من الذين آمنوا المؤمنون بعد إنزال الذكر ، وقبل نزول هذه الآية ، أو من علم سبحانه وقدر أنهم سيؤمنون ، وعلى ذلك يكون المعنى على الأول ، ليخرج الله أو الرسول(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى : ليحصل لهم ماهم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح . وعلى الثانى ليخرج من علم الله وقدر أنه يؤمن (مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) أى : من أنواع الضلالات إلى الهدى ، ومن ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم والتعبير بالماضى فى قوله سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا » عمن سيؤمن ، باعتبار علمه تعالى وتقديره سبحانه الأزلى ، أو باعتبار نزول هذه الآية[1] (وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً) وفق ما بُيِّن فى تضاعيف ما أنزل من الآيات الواضحات التى ورد بها الذكر الحكيم (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى : تنساب من بين قصورها الأنهار الصافية ؛ ليكمل لهم النعيم العظيم فى دار البقاء(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) بمعنى أن مكثهم فى تلك الجنات دائم حيث لايخرجون منها ولا يموتون (قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً) فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزقه الله -تعالى- المؤمنين من الثواب وسائر المطاعم والمشارب ، وكل مالذ وطاب مما تقر به الأعين ، وتطمئن إليه النفوس ، وإلا لم يكن فى الإخبار بما ذكر ههنا كثير فائدة .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَۢا ﴿١٢﴾)

---

(١) إذا أريد بالذين آمنوا المؤمنون بعد إنزال الذكر وقبل نزول هذه الآية .

المفردات :

(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) : أي : يجرى أمر الله وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن.

(قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيْءٍ عِلْماً) : أي : أنه سبحانه لا تخفى عليه خافية لإحاطة علمه بكل شيء لاستحالة صدور هذه الكائنات العظيمة ممن ليس كذلك .

التفسير

١٢ ـ (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شيْءٍ عِلْماً) :

إخبار من الله ـ تعالى ـ عن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ؛ ليكون ذلك باعثاً وحافزا على تعظيم ما شرع الله من الدين القويم ، وما خلق من مخلوقات كونية على أقصى درجة من الإحكام والكمال ، لاتحيط بعظمتها منطقة الفكر ولا دائرة العقل ، ويضيق عنها نطاق الحصر ، ولا أدل على ذلك من أنه سبحانه هو الذى خلق سبع سموات طباقاً ومن الأرض مثلهن فى العدد بمعنى أنها طبقات سبع بعضها فوق بعض وهو رأى الجمهور وقد وصفه القرطبى بأنه أصح الأقوال وطبقات الأرض هى الطينية والصخرية والمائية والمعدنية ونحو ذلك . وقيل : المثلية بين السموات والأرض فى الخلق لا فى العدد ولا فى غيره فهى أرض واحدة مخلوقة كالسموات السبع ، وأُيِّد بأن الأرض لم تذكر فى القرآن إلا موحَّدة ، ورُد بأنه صح فى رواية البخارى وغيره « اللهم رب السموات السبع وما أقللن . ورب الأرضين السبع وما أظللن » الحديث كما رُد بما ثبت فى الصحيحين « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرض خلق؟ قال : نعم قال : فما الخلق ؟ قال : إما ملائكة أو جن .

وأخيرا لعل القول بالتعدد هو المتبادر من الآية وتقتضيه الأخبار .

ويقول روح المعانى : ومع هذا هو ليس من ضروريات الدين فلا يكفر منكره أو المتردد فيه

وقد ذكروا تفصيلات عن جوهر كل سماء وعن المسافة بين كل سماء وأخرى وبين كل أرض وأخرى .

وهذا ونحوه حقيق بأن نكل أمره إلى الله عالم الغيب والشهادة .

(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) أى : يجرى أمر الله – تعالى – وقضاؤه وقدره – عز وجل – بينهن ، وينفذ حكمه فيهن ، وعن قتادة فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه وقضاء من قضائه – عز وجل – وقيل : (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) . بحياة وموت وغنى وفقر .

وقال مقاتل : (الْأَمْرُ) هنا الوحى و (بَيْنَهُنَّ) إشارة إلى ما بين هذه الأرض السفلى التى هى أدناها وبين السماء السابعة التى هى أقصاها (لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى : أعلمتكم وأخبرتكم بذلك من خلق سبع سموات بعضها فوق بعض ومن الأرض مثلهن : لتعلموا أن الله قادر على كل شيء (وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) لاستحالة صدور هذه المخلوقات العظيمة ممن ليس كذلك ، بل هى شواهد ناطقة ، ودلالات بينة .

على أن علمه الواسع قد أحاط بكل شيء – عز أو دقّ – وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

سورة التحريم

مدنية وآياتها اثنتا عشرة آية وكما تسمى سورة التحريم تسمى المتحرم ، ولم تحرم ؛ وسورة النبي ﷺ وعن ابن الزبير سورة النساء .

مناسبتها للسورة التي قبلها وهي سورة الطلاق :

أنها متواخية معها في الافتتاح بخطاب النبي ﷺ وأن السابقة مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإماء وبينهما من الملابسة مالا يخفى .

ولما كانت السابقة في خصام وطلاق نساء الأمة ذكر في هذه خصومة نساء النبي المصطفى ﷺ إعظاماً لهن أن يذكرن مع سائر النسوة فأُفردن بسورة خاصة ، ولذلك ختمت بذِكْر آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران . قاله السيوطي عليه الرحمة .

اغراض السورة :

عتاب الرسول ﷺ عتاباً رقيقاً لطيفاً في التحريم والتحليل قبل ورود وحي سماوي (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ؟) الآية .

تناولت أمرا على جانب من الخطورة ألاوهو إفشاء السر الذي يكون بين الزوجين والذي يهدد الحياة الزوجية بالتردي والتوقف ، وضربت المثل برسول الله ﷺ حين أَسَرَّ إلى حفصة حديثاً ، واستكتمها إياه فأَفشته إلى عائشة حتى شاع وذاع مما أغضبه ﷺ حتى هم بتطليق أزواجه (وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ...) الآية .

حملت على أزواجه ـ صلوات الله عليه ـ حملة عنيفة حين حدث ما حدث بينهن من التنافس (عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْرًا مِّنكُنَّ ...) الآية .

أبرزت الأمر بالابتعاد عن جهنم ، وخوفت من عذابها بأشد أنواع الوعيد (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ...) الآية .

دعت دعوة قوية إلى التوبة النصوح ، وأظهرت وعد المؤمنين بإتمام نورهم فى القيامة (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوٓا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً ...) الآية .

رسمت الطريق لجهاد الكفار والمنافقين حيث يكون بطريق السيف مع الكفار ، وبالبرهان والحجة مع المنافقين (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...) الآية .

بينت أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة ، وأن القرب من المفسدين لايضر مع وجود الصدق والإخلاص (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا .. وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ..) الآيتين .

ختمت السورة بذكر تصديق مريم ابنة عمران وما اتصفت به من عفة وتصون فكان لها من الله أعظم الجزاء (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ...) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾)

المفـــردات :

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ) : أى : شرع لكم تحليلها ، وهو حل ماعقدته الأيمان ، وذلك بالكفارة أو بالاستثناء متصلا حتى لايحنث ، وتحلة أصلها تحللة قبل الإدغام مصدر حلل المضعف كتكرمة من كرم .

(فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) : أخبرت .

(فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) أى : فقد مالت قلوبكما عن الحق ، يقال صغت الشمس مالت للغروب :

(وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ) أى : وإن تتعاونا بما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة ، والوقيعة بينه وبين نسائه بإفشاء سره .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) أى : فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاديه .

(قَانِتَاتٍ) : مُطِيعات من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع .

(سَائِحَاتٍ) أى : صائمات ، وسمى الصائم سائحاً؛ لأنه يسبح فى النهار بلا زاد أو مهاجرات .

التفسير

١ - (يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

روى فى سبب النزول أن النبى ﷺ خلا بمارية فى يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها اكتمى علَىَّ فقد حرمت مارية على نفسى ، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان من بعدى أمر أمتى ، فأخبرت بذلك عائشة وكانتا متصادقتين. كما فى رواية الكشاف وقيل : خلا بها فى يوم حفصة وكانت قد استأذنته ﷺ فى زيارة أبويها فأذن لها فلما علمت قالت : فى بيتى وعلى فراشى فأرضاها بما حدثها به من تحريم مارية على نفسه وبما بشرها به من إمامة الشيخين أبى بكر وعمر واستكتمها ذلك فلم تكتمه فطلقها واعتزل نساءه فنزل جبريل - عليه السلام - فقال : راجعها فإنها صوامة قوامة وإنها لمن نسائك فى الجنة .

وقال النووى فى شرح مسلم : الصحيح أن الآية نزلت فى قصة العسل لا فى قصة مارية المروية فى غير الصحيحين ولم تأت فى طريق صحيح ، وشرب العسل كان عند زينب بنت جحش فقد روى أنه ﷺ كان يمكث عندها ويشرب عسلا فتواصت عائشة وحفصة لما وقع فى نفسهما من الغيرة من ضرتهما أن أيتهما دخل عليها النبى ﷺ فلتقل له : إنى أجد منك

ريح مغافير[1] ، وكان ﷺ يحب الطيب ، ويكره الرائحة الكريهة ، للطافة نفسه الشريفة فحرم العسل على نفسه وقد حلف وقال : لن أعود فنزلت .

والمعنى : لم تحرم أيها النبى ما أحل الله لك من ملك اليمين أو شرب العسل ، وفى ندائه ﷺ أيها النبى فى مفتتح العتاب من حسن التلطف به والتنويه بشأنه مالا يخفى حيث خوطب غيره باسمه من سائر الرسل ، والاستفهام ليس على حقيقته بل هو معاتبة .

والمراد من التحريم الامتناع ، وبما أحل الله لك العسل على ما صححه النووى أو وطء سريته على مافى بعض الروايات (تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) استئناف لبيان أن الداعى إلى التحريم مؤذن بعدم صلاحيته لذلك كأنه قيل : إن الذى فُعل زلة ؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ابتغاء مرضاة أزواجه على أن التحريم فى نفسه محل عتب والباعث عليه كذلك(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) بالغ الغاية فى الغفران والرحمة فقد غفر الله لك ما بدر منك ، وفيه تعظيم له ﷺ بأن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى الكريم يعد كالذنب وإن لم يكن كذلك فى نفسه ، وأن عتابه ﷺ لم يكن إلا لمزيد العناية به .

هذا وإن تحريم الحلال على وجهين ، الأول : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، وهو كاعتقاد ثبوت حكم التحليل فى الحرام وهو محظور يوجب الكفر فلا يمكن صدوره عن المعصوم أصلا ، والثانى : الامتناع عن الحلال مطلقاً أو مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله ، وهذا مباح صرف ، وحلال محض .

وما وقع منه ﷺ كان من هذا النوع وإنما عاتبه تعالى على ما بدر منه رفقاً به ، وتنويهاً بقدره . وإجلالا لمنصبه ﷺ أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه مع أنه ألف لطف الله به .

٢ - (قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) :

---

(١) المغافير بفتح الميم والغين جمع مغفور بضم الميم صمغ ينضحه شجر العرفط يؤخذ ثم ينضح بالماء فيشرب وله رائحة كريهة . والعرفط شجر أو نبت له ورق عريض .

أى : قد شرع لكم سبحانه تحليل[١] أيمانكم بالكفارة أو بالاستثناء المتصل الذى يأتى به الحالف حتى لا يحنث ، والتحليل من الحل ضد العقد فكأنه باليمين على الشىء عقد عليه لالتزامه ، وبالكفارة يحل ذلك .

وعلى القول بأنه كان منه – عليه الصلاة والسلام – يمين كما جاء فى بعض الروايات وهو ظاهر الآية .

اختلف هل أعطى ﷺ الكفارة لمستحقيها أولا ، فعن الحسن أنه لم يعط ؛ لأنه كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين ، وعن مقاتل أنه ﷺ أعتق رقبة فى تحريم مارية ، وقد نقل مالك فى المدونة عن زيد بن أسلم أنه ﷺ أعطى الكفارة فى تحريمه أم ولده حيث حلف ألا يقربها ، ونقل مثله عن الشعبى .

(وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) أى : والله سيدكم ومتولى أموركم ، وهو جل شأنه عظيم العلم بما يصلح لكم فيشرعه لخيركم بالغ الحكمة والإتقان فى أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما فيه الاستقامة والصلاح فيما أحل وحرم .

٣ – (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) :

المراد من بعض أزواجه على المشهور حفصة لا عائشة كما زعم بعض الشيعة أى : واذكر حديثاً أسرّه النبى ﷺ لبعض أزواجه ، وهو ماروى عنه ﷺ « ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب ابنة جحش فلن أعود إليه وقد حلفت لاتخبرى بذلك أحدا » أو هو حديث مارية أو حديث الإمامة كما قيل (فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ) أى : أخبرت بالحديث عائشة ، وكانتا متصادقتين ، وتناولتا نقصان حظ ضرتهما زينب من حبيبهما ﷺ حيث إنه كما فى البخارى وغيره : كان يمكث عندها يشرب العسل ، وقد اتخذ ذلك عادة وقد استخفها السرور فنبأت به[٢] ، (وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ) أى : جعل سبحانه نبيه ﷺ ظاهرًا على

---

(١) تحليل وتحلة مصدران : الأول قياسى والثانى سماعى لحلل المضعف العين ، وأصل تحلة تحللة قبل الإدغام للمثلين .

(٢) حيث إن وجوده عندها ليس لمودة قلبية كما تقصدان .

الحديث ، مطلعاً عليه بواسطة جبريل- عليه السلام- أو جعل الله الحديث ظاهرا على النبى ﷺ يتبينه ويدرك كنهه .

ولما أظهر الله نبيه على الحديث أعلم ﷺ حفصة بنصه الذى أفشته وهو قوله لها : « كنت شربت عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود » وأعرض عن بعضه فلم يخبرها به وهو قوله : « وَقَدْ حلفت » تكرماً من مزيد خجلها ، وهذا منه ﷺ اهتمام بمرضاة أزواجه وهو لايحب شيوع ذلك عنهن رعاية لحقهن وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، وابن أبى حاتم عن مجاهد أن النبى ﷺ أسر إلى حفصة تحريم مارية ،وأن أبا بكر وعمر يليان أمر الناس بعده فأسرت ذلك إلى عائشة فعرف ﷺ بعضه ، وهو أمر الإمامة . روى عن على كرم الله وجهه - وابن عباس قالا : إن إمامة أبى بكر وعمر لفى كتاب الله . (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً) .

وقيل : عرف أمر مارية ، وأعرض عن أمر الإمامة مخافة أن يفشو . روى أنه ﷺ قال لحفصة : ألم أقل لك اكتمى علىّ قالت : والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى فرحاً بالكرامة التى خص بها أبى .

وحين نبأها بما أفشته لتعرف هل التى كشفت الحديث عائشة أولا (مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا) قال ﷺ :(نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) الذى لا تخفى عليه خافية لإحاطته بخطرات النفوس ومكنونات الضمائر ، فإنه لذلك أوفق للإعلام[1] .

قال الآلوسى : وقصارى ما يمكن أن يقال : يحتمل أن يكون النبى ﷺ شرب عسلاً عند زينب كما هى عادته وجاء إلى حفصة فقالت له ما قالت فحرم العسل ، واتفق - له عليه الصلاة والسلام- قبيل ذلك أو بعيده أن وطىء جاريته مارية فى بيت حفصة وفى يومها وعلى فراشها ، فوجدت فحرم ﷺ مارية وقال لحفصة ما قال تطييبا لخاطرها واستكتمها ذلك فكان منها ما كان ، ونزلت الآية بعد القصتين فاقتصر بعض الرواة على إحداهما وبعضهم

(١) واستدل بالآية على أنه لا بأس بإسرار بعض الحديث إلى مَن يركن إليه من زوجة أو صديق ، وأنه يلزمه كتمه ، وفيها على ما قيل دلالة على أنه يحسن العشرة مع الزوجات والتلطف فى العتب والإعراض عن استقصاء الذنب .

على نقل الأخرى وهو كلام صادق إذ ليس فيه دعوى كلٍّ حصر سبب النزول فإن صح هذا هان أمر الاختلاف ا ه بتصرف .

٤ -(إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) :

ومما يدل على أن المرأتين اللتين وقع منهما التظاهر على رسول الله ﷺ هما عائشة وحفصة مارواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس[1] قال : لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله فيهما : (إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ثم أتانى فسكبت على يديه فتوضأ فقلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى : (إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) فقال عمر : واعجبا لك يا بن عباس هما عائشة وحفصة ثم أنشأ يحدثنى الحديث بطوله .

والآية خطاب لهما على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة فى العتاب ، فإن المبالغ فى العتاب يصير المعاتب بعيداً أولا عن ساحة الحضور ، ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : (إِن تَتُوبَآ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) أى : مالت عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله ﷺ ، وحب ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه إلى مخالفته . وجملة (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) تعليل لجواب الشرط ودليل عليه ، والتقدير إن تتوبا إلى الله فلتوبتكما موجب وسبب ؛ لأنه قد صدر عنكما ما يقتضيها من ميل قلوبكما عنه ﷺ ، وقيل : الجواب محذوف والتقدير إن تتوبا إلى الله يمح إثمكما وقوله : (فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) بيان لسبب التوبة وقيل : غير ذلك .

والجمع فى قلوبكما دون التثنية لكراهة اجتماع تثنيتين مع ظهور المراد ، وهو فى مثل ذلك أكثر من التثنية والإفراد (وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ) أى : فلن تتعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) بمعنى أنه لا يعدم من يظاهره ؛ فإن الله مؤيده وناصره ، وجبريل رئيس الكروبيين[2] قرينه ، وكل من آمن وعمل صالحاً أتباعه وأعوانه .

(١) وقد أخرجه أيضا البخارى ومسلم والترمذى وابن حبان وغيره عن ابن عباس .

(٢) الكروبيون بالتخفيف سادة الملائكة .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - وبه قال عكرمة ومقاتل وهو اللائق بتوسطه بين جبريل والملائكة - عليهم السلام - وقيل : أريد به من برىء من النفاق ، وقيل الصحابة ، (وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ) بمعنى أن الملائكة على كثرة عددهم ، وامتلاء السماء بهم فوج مظاهر بعد ذلك له قدره وشأنه بما فيهم جبريل - عليه السلام - وإن كانت نصرتهم من نصرة الله فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه وأعظم جل جلاله شأن النصرة لرسوله ﷺ على هاتين الضعيفتين إما للإشارة إلى عظم مكر النساء ، أو للمبالغة فى قطع حبال طمعهما لعظم مكانتهما عند النبى وعند المؤمنين لأمومتهما لهم ، وكرامة له ﷺ ورعاية لأبويهما فى أن تظاهرهما يجديهما نفعاً ، فكأنه قيل : فإن تظاهرا عليه فلا يضره ذلك فإن الله تعالى هو مولاه وناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه (وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ) مظاهرون له ومعينون إياه كذلك .

٥ - (عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) :

أى : إن تحقق طلاقكن فحق وواجب أن يبدل الله رسوله أزواجاً خيرًا منكن ، والخطاب لهن جميعاً على سبيل الالتفات ، وأصله لاثنتين ، ولكنه ورد عاما : لأنهن فى منزل الوحى أو على التغليب أو لاجتماعهن فى الغيرة عليه ﷺ لما أخرجه البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه فقلت : عسى ربه إن طلقهن أن يبدله خيرًا منهن فنزلت هذه الآية وفق قول عمر .

وكون المبدلات خيرًا منهن مع أن أمهات المؤمنين خير نساء على وجه الأرض ؛ لأنه إن طلقهن لإيذائهن إياه لم يبقين كذلك ، وكان غيرهن من الموصوفات فى الآية بالصفات الكاملة خَيْرًا منهن إن تزوجهن الرسول ، وهذا وعد من الله لرسوله لو طلقهن فى الدنيا أن يزوجه نساءً خيرًا منهن تخويفاً لهن كما فى القرطبى .

وليس فى الآية مايدل على أنه لم يطلق حفصة ولامايدل على أن فى النساء خيرا منهن فإن تعليق طلاق الكل لاينافى تطليق واحدة ، والمعلق بما لم يقع لايجب وقوعه .

وقد روى أنه ﷺ طلق حفصة فغلب ما لم يقع من الطلاق على الواقع .

وقد وصف الله هؤلاء الزوجات اللاتى سيبدل رسوله ﷺ بهن فقال : (مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ) مقرات مخلصات أو منقادات مصدقات (قَانِتَاتٍ) مواظبات على الطاعة ـ أو مصليات (تَائِبَاتٍ) مقلعات عن الذنب (عَابِدَاتٍ) متذللات لأمر الرسول ﷺ متعبدات (سَائِحَاتٍ) صائِمَاتٍ . سمى الصائم سائحا ؛ لأنه يسيح فى النهار بلازاد ، وإنما يأكل حيث يجد الطعام أو مهاجرات . قال ابن زيد : ليس فى الإسلام سياحة إلا الهجرة ، وقيل : ذاهبات فى طاعة الله كل مذهب (ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) والثيبات جمع ثيب وهى التى زالت عذرتها وسميت بذلك ؛ لأنها ترجع إلى الزوج بعد زوال عذرتها .

والأبكار جمع بكر وهى التى لم تفتض ووسط العاطف بينهما لتنافيهما ولو سقط لاختل المعنى . إن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان ، وترك العطف فى الصفات السابقة ؛ لأنها صفات تجتمع فى شخص واحد ، وبينهما شدة اتصال يقتضى ترك العطف .

وذُكِرَ الجنسان ؛ لأن فى أزواجه ﷺ من تزوجها ثيبا ، وفيهن من تزوجها بكرا وجاء أنه لم يتزوج بكرا إلا السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾)

المفـــردات :

(قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) : وقاية النفس بترك المعاصى ، ولزوم الطاعات ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتوجيه، ويراد بالحجارة الأصنام .

(غِلَاظٌ شِدَادٌ) : أى : غلاظ الأقوال شداد الأفعال أو الخَلق والخُلُق .

(تَوْبَةً نَصُوحًا) : بمعنى بالغة الغاية فى النصح وقيل : هى من نصاحة الثوب أى : خياطته بمعنى أنها توبة قوية ترفو خروقك فى دينك ، وترم خللك .

(يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) : يقال : أخزى الله ـ تعالى ـ فلانًا فضحه وقال الراغب : يقال : خزى الرجل لحقه انكسار إما من نفسه وهو الحياءُ المفرط ومصدره الخزاية وإما من غيره وهو ضرب من الاستخفاف ومصدره الخزى .

التفسـير

٦ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) :

ينادى الله المؤمنين فيدعوهم إلى الابتعاد عن نار لا تشبه نيران الدنيا فى اتقادها وقسوة أثرها ، بل تربو وتزيد على ذلك حيث إنها تتقد بالناس والحجارة كما يقول سبحانه : (قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) وذلك بأن تأخذوا أنفسكم بترك المعاصى وفعل الطاعات وتأخذوا أهليكم بما تأخذون به أنفسكم بجعلهم موضع عنايتكم بما تولونهم من نصح وإرشاد حتى لا تكونوا فى أشد العذاب كما قيل : من أشد الناس عذابًا يوم القيامة من جهل أهله ، روى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال حين نزلت : يا رسول الله نقى أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « تنهوهن عمَّا نهاكم الله عنه ، وتأمروهن بما أمركم الله به فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار » والمراد بالأهل كما قيل ما يشمل الزوجة والولد والعبد والأمة ، وأدخل بعضهم الولد فى الأنفس ؛ لأنه بعض أبيه واستدل بالآية على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء ويشير قوله تعالى : (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) إلى أن أمر تلك النار يدعو إلى العجب والاهتمام لأنها لا تتقد بالحطب كما هو شأن نيران الدنيا وإنما تتقد بالأجساد والأحجار .

قيل : المراد بها الأصنام التى كانت تعبد من دون الله لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(١) . وقال ابن مسعود وغيره : هى حجارة من كبريت زاد مجاهد أنتن من الجيفة ، ونقل عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها » وقد أمر المؤمنون باتقائها ؛ لأنها معدة للكافرين .

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ) أى : أنه موكل عليها ملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها . قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، وفى أجسامهم غلظة وشدة (لَا يَعْصُونَ اللهَ

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٩٨ .

مَا أَمَرَهُمْ) بمعنى أنهم لا يمتنعون من الأمر ، ويلتزمونه (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فيؤدونه ، ويبادرون إليه من غير تثاقل فيه ولا توان عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله فى شدة وقوة وهؤلاء هم الزبانية ، والجملتان ليستا فى معنى واحد ، إذ الأولى : (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ) لنفى المعاندة والاستكبار عنهم ، والثانية : (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) لنفى الكسل والتثاقل عنهم وأنهم يفعلون الأمر فى وقته فلا يقدمون ولا يؤخرون وعلى ذلك فلا تكرار.

وفى المحصول المعنى لا يعصون الله فيما مضى والإتيان بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، ويفعلون ما يؤمرون فى الآتى .

٧ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إياهم النار حسبما أمروا به من الله تعالى ويراد من اليوم ، اليوم المعهود وهو يوم الجزاء ، ونهيهم عن الاعتذار ؛ لأنهم لا عذر لهم أو لأن العذر منهم يذهب سدى ولا ينفعهم إذ ذاك ، يوم لا ينفع المرء حينئذ إلا ما قدمت يداه .

وهذا النهى لإدخال اليأس فى قلوبهم (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : تجزون وتعاقبون على الكفر والمعاصى التى اقترفتموها فى الدنيا بعد ما نهيتم عنها نهيًا شديدا زاجرا وأمرتم بالإيمان والطاعة أمرًا كاملًا فلم تنتفعوا بترك ما حذرتم منه وفعل ما وجهتم إليه ، بل استمرأتم الضلال ، وتمسكتم بالعصيان .

٨ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوٓا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أى : توبوا معشر الذين انقادت قلوبهم إلى الله توبة بالغة الغاية فى النصح وقد وصفت التوبة بذلك على المجاز ؛ لأن النصح وصف التائبين ، وهو أن ينصحوا أنفسهم بالتوبة ، فيأتوا بها على طريقها المرسوم ، وذلك بأن يتوبوا عن القبائح لقبحها نادمين على فعلها مغتمين أشد الاغتمام لارتكابها عازمين على أنهم لا يعودون إليها ، موطنين أنفسهم على ذلك

بحيث لا يصرفهم عنه صارف أصلا ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ما التوبة النصوح ؟ قال : (أن يندم على الذنب الذى أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع) .

وروى تفسيرها بما ذكر عن عمر وابن مسعود وأبىّ والحسن وغيرهم ، وعن عمرو بن العلاء قال : سمعت الحسن يقول : التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته .

وقال الإمام النووى : التوبة ما استجمعت ثلاثة أمور : أن يقلع عن المعصية ، وأن يندم على فعلها ، وأن يعزم عزماً جازما ألّا يعود إلى مثلها أبدا . فإن كانت المعصية تتعلق بآدمى لزم أمر رابع وهو رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه أو تحصيل البراءة منه ، وركنها الأعظم الندم ، وعلامة الندم طول الحسرة والخوف ، وانسكاب الدمع .

وفى شرح المقاصد قالوا : إن كانت المعصية فى خالص حق الله تعالى فقد يكفرها الندم كما فى ارتكاب الفرار من الزحف ، وترك الأمر بالمعروف ، وقد تفتقر إلى أمر زائد كتسليم النفس للحد فى الشرب وتسليم ما وجب فى ترك الزكاة ، ومثله فى ترك الصلاة .

وظاهر الأخبار قبول التوبة ما لم تظهر علامات الموت ، ويتحقق أمره عادة ، ومقتضى كلام النووى والمازنى وغيرهما وجوبها عند التلبس بالمعصية ولا يجوز تأخيرها سواءٌ أكانت صغيرة أم كبيرة . وقيل : المراد توبوا إلى الله توبة ترفو خروقك فى دينك ، وترم خللك من نصاحة الثوب أى : خياطته ، وقيل : توبة خالصة من الذنوب من قولهم : عسل ناصح إذا خلص من الشمع .

(عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : قيل : إن المراد أنه سبحانه يفعل ذلك على التحقيق، ووروده بتلك الصيغة للإطماع جريا على سنن الملوك من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ، وللإشعار بأن تكفير الذنوب تفضُّل والتوبة غير موجبة ، وأن العبد ينبغى أن يكون فى خوف ورجاء وإن بالغ فى وظائف العبادة .

وقبول توبة غير الكافر مسألة خلافية بين المعتزلة القائلين : بأنه يجب على الله قبولها عقلا ، وبين إمام الحرمين والقاضى أبى بكر حيث يقولان :بأنه يجب اعتقاد قبولها سمعا ووعدا لكن بدليل ظنى إذ لم يثبت فى ذلك نص قاطع فى غفران ذنوب المسلم بالتوبة لايقبل التأويل ، والدليل الظنى كقوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ »(١) ، وأما حديث التوبة تجب ما قبلها فليس بمتواتر ، وقيل غير ذلك ، والتفصيل تكفل به علم الكلام .

وأما توبة الكافر فالإجماع على قبولها قطعا بالسمع لوجود النص كقوله تعالى : « قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »(٢) ولأنه إذا قطع بقبول توبة الكافر كان ذلك فتحا لباب الإيمان ، وسوقا إليه ، وإذا لم يقطع بتوبة المؤمن كان ذلك سدا لباب العصيان ومنعا منه .

وبالتوبة النصوح يدخلكم الله – جل شأنه – جنات تجرى من تحت قصورها وبين أشجارها أنهار تجد فيها النفس ما تهواه وما تشتهيه وذلك (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) .

والمراد بنفى الإخزاء إثبات الكرامة والعز ، وفيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق ، وحث للمؤمنين على مضاعفة الحمد والثناء على الله حيث عصمهم من مثل حال الكفار ، ويقصد بالإيمان نوره الكامل على ما ذكره الخفاجى (نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين عند مرورهم على الصراط . قال الضحاك : ما من أحد إلا يُعطى نورا يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين فقالوا : (رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا) ، وكون هذا القول يقوله المؤمنون إذا طفىء نور المنافقين نقل أيضا عن مجاهد وابن عباس وغيرهما ، وعن الحسن أنهم يقولون ذلك تقربا إلى الله مع تمام نورهم ، وقيل : تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامها تفضلا ، وقيل : السابقون إلى الجنة

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٥٣

(٢) سورة الأنفال : من الآية ٣٨

يمرون مثل البرق على الصراط وبعضهم كالريح ، وبعضهم حبوا وزحفا وأولئك هم الذين يقولون : (رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا) .

(إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أى : إنك البالغ القدرة على كل شىء من المغفرة والعذاب ، والرحمة والعقاب واستجابة الدعاء وتحقيق الرجاء .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) : من الغلظة وهى الشدة أى : واستعمل الشدة والخشونة مع الفريقين فى جهادهما .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) : المأوى المسكن أى : ومسكنهم جهنم .

(وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : جهنم أو مأواهم .

التفسير

٩ - (يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

المعنى : جاهد أيها النبى الكفار بالقتال ، والمنافقين بالحجة وإقامة الحدود ، واستعمل مع الفريقين الشدة والخشونة فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة ، وعن الحسن أكثر ما كان يصيب الحدود فى ذلك الزمان من صيغ المنافقين ، فأمر - عليه الصلاة والسلام - أن يغلظ عليهم فى إقامة الحدود .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : بمعنى أن مسكنهم الذى يرجعون إليه فى الآخرة جهنم التى سيذوقون فيها أشد العذاب ، وأقساه ، وقبح ذلك المسكن الذى كبكبوا فيه هم والغاوون لما اشتمل عليه من شدائد وأهوال تجعل الولدان شيبا .

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(فَخَانَتَاهُمَا) : من الخيانة وهى مخالفة الحق نقضا للعهد بما صدر عنهما من كفر وعصيان ، ونقيضها الأمانة . ولاتفسر الخيانة بالفجور لما يأتى فى الشرح .

(فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) أى : من عذابه شيئا من الإغناء .

(ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) أى : مع سائر الداخلين الذين لاصلة لهم بالأنبياء .

(أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) أى : صانته عن دنس المعصية .

التفسير

١٠ -(ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) :

ضرب المثل فى مثل هذا عبارة عن إيراد حالة غريبة لتُعرف بها حالة أُخرى مشاكلة لها فى الغرابة .

والمعنى : مثّل الله - عز وجل - حال الكافرين فى أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة ، ولا يجديهم نفعًا مع عداوتهم لهم ، ما كان بينهم من النسب والمصاهرة ، وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر نبيًّا . مثل الله ذلك بحال امرأة نوح وامرأة لوط حالًا ومآلًا (كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ) أى : فى عصمة نبيين عظيمى الشأْن رفيعى القدر عندهما ليلًا ونهارًا يواكلانهما ويعاشرانهما متمكنين من تحصيل خيرى الدنيا والآخرة ، وحيازة سعادتهما (فَخَانَتَاهُمَا) بما صدر عنهما من كفر وعصيان مع تحقق ما ينافيهما من مرافقة كلتيهما لنبى كريم ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس عنه : إنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل على ضيف زوجها إذا نزل به .

رُوى ذلك عن جمع وصححه الحاكم عن ابن عباس .

وأخرج ابن عدى والبيهقى فى شعب الإيمان وابن عساكر عن الضحاك أنه قال : خيانتهما النميمة ، وتمامه فى رواية أُخرى كانتا إذا أُوحى الله تعالى بشىءٍ أفشتاه للمشركين . ولا تفسر الخيانة بالفجور لما أخرج غير واحد عن ابن عباس ما زنت امرأة نبى قط ورفعه أشرس إلى النبى ﷺ قال صاحب الكشاف : لا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور ؛ لأَنه سمج فى الطبع نقيصة عند كل أحد .

وفى هذا تصوير لحال المرأتين المماثلة لحال الكفرة فى خيانتهم لرسول الله ﷺ بالكفر والعصيان مع تمكنهم التام من الإيمان والطاعة .

وقوله تعالى: (فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا) بيان لما أدى إليه خيانتهما أى : فلم يغن الرسولان الكريمان عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من صلة الزواج إغناءً مَا من عذاب

الله لكفرهما بالرسولين وإفشاء أسرارهما ، وقيل لهما عند موتهما أو يوم القيامة : ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط .

١١ ـ (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

المعنى : مثَّل الله حال المؤمنين فى أن وصلة الكفار لا تضرهم ، ولا تنقص شيئًا من أجورهم وزلفاهم عند الله ، بحال امرأة فرعون ، منزلتها العظيمة ، ومكانتها الرفيعة عند الله ولم ينقصها أنها كانت تحت أعدى أعداء الله وذلك (إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) أى : قريبًا من رحمتك : لأنه تعالى منزه عن المكان ، وجوز أن يكون المراد بعندك أعلى درجات المقربين ، لأن ما عند الله خير لإرادة القرب من العرش ، قالت ذلك وهى تعذب بالأوتاد الأربعة .

أخرج أبو يعلى والبيهقى بسند صحيح عن أبى هريرة أن فرعون أوتد لإمرأته أربعة أوتاد فى يديها ورجليها . فكانت إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة ـ عليهم السلام ـ فقالت : (رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) .

وفى رواية عبد بن حميد عن أبى هريرة عنه أنه قال : إنه وتد لها أربعة أوتاد وأضجعها على ظهرها وجعل على صدرها رحى ، واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء فقالت : (رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) .

روى أنها لـمَّا قالت ذلك أريت بيتها فى الجنة درة ، وانتزعت روحها ، وهى آسية بنت مزاحم آمنت بموسى ـ عليه السلام .

(وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ) أى : من نفسه الخبيثة ، لأنه بجوهره عذاب ودمار يطلب الخلاص منه ثم طلبت ثانيًا النجاة من عمله تنبيهًا على أنه الطامة الكبرى فهو الكفر ،

والظلم ، والتعذيب ، وغير ذلك من القبائح (وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) من القبط كلهم فهم تابعون له فى الظلم قاله مقاتل وهم أهل مصر إذ ذاك .

١٢ ــ (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) :

عطف قوله ــ سبحانه ــ : (وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ) على امرأة فرعون أى : ضرب الله مثلًا للذين آمنوا حالها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء عالمى زمانها مع أن أكثر قومها كانوا كافرين ، وجمع فى التمثيل بين من لها زوج ومن لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييبًا لقلوبهن كما قيل وهى من أعقاب هارون أخى موسى ــ عليهما السلام ــ وقد صانت فرجها وحفظته من الرجال أو من دنس المعصية (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) المخلوقة لنا بلا توسط أصل ، والنافخ جبريل ــ عليه السلام ــ وإسناده إليه ــ تعالى ــ على المجاز أو على حذف مضاف بمعنى فنفخ رسولنا فيه أى : فى الفرج . والذى اشتهر بين العلماء أن جبريل نفخ فى جيبها[1] فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى ــ عليه السلام ــ ، وقد روى عن قتادة ، وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها[2] وهو محتمل ؛ لأن الفرج فى اللغة فرجة بين الشيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ فى مدحها والثناء عليها ؛ لأنها إن منعت جيب درعها فهى للنفس أمنع وفى ذلك من الوصف بالعفة ما فيه وفى مجمع البيان عن الفراء أنها منعت جيب درعها عن جبريل ــ عليه السلام ــ لَمَّا تمثل لها بشرًا سويًا . وكان ذلك على ما قيل : قولها : « إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا »[3] .

(وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ) أى : آمنت بصحفه المنزلة على إدريس وغيره ، أو بما أوحى منها إلى أنبيائه ، وسماها كلمات لقصرها وصدقت كذلك بجميع كتبه والمراد بها ما عدا الصحف مما فيه طول أو يراد بها جميع ما كتب مما يشمل اللوح وغيره ، وكما قيل

---

(١) جيب القميص ما ينفتح على النحر اهـ مصباح .

(٢) الدرع القميص .

(٣) سورة مريم : من الآية ١٨

يجوز أن يراد بالكلمات وعده – تعالى – ووعيده أو ذلك وأمره – عز وجل – ونهيه إلى غير ذلك من أقوال .

(وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) . من عداد المواظبين على الطاعة المؤثرين لها ، والتذكير على التغليب حيث لم يقل من القانتات ، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم وهذا أبلغ من التأنيث ، وجوز أن يكون المعنى وكانت من نسل القانتين لأنها من سلالة هارون أخى موسى – عليهما السلام – (وعليه تكون مِنْ لابتداء الغاية لا للتبعيض) ومدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع يتبع أصله ، وهى على ما فى بعض الأخبار سيدة النساء ومن أكملهن .

روى أحمد فى مسنده سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية ثم عائشة ، وفى الصحيح كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلَّا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، وهى حَرِيَّة بمزيد من الفضل .

وحسبك أنها عقلت من النبى ﷺ ما لم يعقل غيرها من النساء ، وروت عنه ما لم يرو مثلها أحد من الرجال .

ثم لايخفى أن فاطمة – رضى الله عنها – وهى بضعة من الرسول ﷺ لايعدلها فى الفضل أحد .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٣٤١ — ١٩٨٩ — ٢٥٠٠٠٤